مجموعة قصصيّة

التعبئة

وجدي الأهدل

نوفل

مجموعة قصصيّة

التعبئة

وجدي الأهدل

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2020 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2020
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **David Bagnall / Alamy Stock Photo ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-541-8
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-542-5

إلى المفكّر الحرّ والمناضل الجَسور عبد الباري طاهر الذي ظلّ يقاوم الديكتاتوريّة بقلمه ومواقفه طيلة حياته، ولم يستسلم أبدًا... أبدًا... أبدًا.

هتلر يذهب إلى الجنّة

أمرٌ مريب، لم أشعر بالحرج من عُريي! حتى طبيبي الخاصّ لم أسمح له يومًا بأن يراني هكذا. تفقّدتُ مخزنَي الذخيرة، فوجدتُ أنّهما سليمان تمامًا ولائقان بفحل من العرق الآري. نويتُ أن أتقدّم «له» بالشكر لإصلاحه أخطاء الطبيعة.

قادتني فتاة يربو طولها على الثلاثة أمتار إلى هرم مقلوب وأدخلتني في جوفه. ونحن في الداخل، تلاشى فارق الطول بيننا وصرنا، في كيفيّة لا أعلمها متساويين في القامة. أبصرتُ ملابس فصّلها خيّاطون عمي، طلبتْ منّي أن أختار منها ما أشاء، فوقع اختياري على قميص أبيض كمخ نيئ، وبدلة بلون الدم فيها نقاط سوداء كعيون اليهود.

لقيتُ عنتًا في ارتدائها، بدت لي مصمَّمة من قماش مقوّى ومصبوبة في قوالب هندسيّة لا تمتّ بصلة للجسد البشري. قالت مضيفتي ضاحكة وهي تراني أتقلقل في بدلتي التكعيبيّة:

– سوف تعتادها بعد أن تتمشّى تحت أشعّات شموسنا.

لم أنتبه إلى كلامها، لكنّني ركّزتُ على حدقتي عينيها، فرأيتُ أنّهما ملوّنتان بألوان قوس قزح، إنسان العين باللون البنفسجي، ثم تتدرّج الألوان من الغامق إلى الفاتح في حلقات. شهقتُ تأثّرًا من هذا الجمال الصارخ وانتصب الشعر في ساعديّ، وتمنيتُ لو أنّ له مثيلًا على الأرض! هذه هي الأنثى التي كنت أحتاج إليها لإثبات تفوّق عرقنا. وسوستْ لي

نفسي: «ماذا لو خطفتها وتمكّنتُ في طريقة ما من العودة؟! لا شكّ في أنّني سأثيرُ الذهول في العالم أجمع... المسيح الآري الذي قام من بين الأموات وفي صحبته زوجة فارعة القامة وبارعة الحسن... يا للصدمة على وجوه أعدائي!».

توقّفتْ مكانها وتركتني أتأمّل عينيها من دون أن تُبدي أيّ اِنزعاج. أردتُ أن أحتضنها فابتعدتْ، غمزتْ بعينها وأشارت إليّ أن أتبعها. خرجنا من ذلك المتجر الذي يبدو من الخارج في حجم كابينة الهاتف، لكنّه من الداخل رحب ويشبه مقرّنا المحصّن للمستشارية وقيادة الجيش في برلين.

عاد فارق الطول بيننا إلى الظهور. كنتُ أبدو في جوارها كطفل مع أمّه. سألتها عن اسمها، فقالت: «حوّاء». كنت أُحدّقُ فيها ولا أشبع من تأمّل مفاتنها، وكانت هي تسرق النظر إليّ من طرف عينها وتبتسم وتتغنّج في مشيتها... لقد أدركتْ أنّني واقع حتى الأذنين في حبّها.

لاحظتُ أنّ الضوء مُتقضَب – يمتدّ في أعمدة كالقضبان – فنظرتُ إلى السماء ودُهشت! رحتُ أعدّ الشموس وأنا أتلفّتُ إلى الجهات الأربع وأُعيدُ الإحصاء. كُنّ يلاحظنني ثم ابتسمن دفعة واحدة. قلت لرفيقتي، مُشوَّشًا:

– هل ما أراه حقيقة... كأنّ الشموس تضحك في وجهي؟!

سألتني:

– هل عرفتَ عددها؟

قلتُ غير متيقّن:

– اثنتان وعشرون.

اهتزّ رأسها بلطف:

– أحسنت... الشمس الثالثة والعشرون ستشرق بعد أن يفقس الشيطان من البيضة.

كنّا نمشي في وادٍ مقفر، تربته صلصالية كدرة، فيه صخور وحصباء سوداء مع اخضرار يسير، وتحيط بنا جبال شاهقة جرسية الشكل بلون الباذنجان ينعكس عليها ضياء الشموس بتناوب يُشتّتُ الانتباه.

بدأتُ أشعر بالراحة في ملابسي الجديدة التي تكيّفتْ لتناسب مقاييسي الجسدية. تجرّأتُ وسألتها:

– هل أنتِ التي سمعتُ صوتها يُناديني عندما ضغطتُ زناد المسدّس؟

توقّفتْ عن المشي واستدارت لتواجهني:

– لا... الذي ناداك هو ملكنا المعظّم شخصيًّا.

حين جاءت سيرة الملك على لسانها، توهّجت الألوان في حدقتيها بوميض شديد. توقّفتْ حوّاء عند حجر مميّز له مظهر هرمي، وقالت:

– هذا منزلك.

أفلتتْ منّي ضحكة ساخرة:

– هذا؟... هل تمزحين؟!

قالت، وهي تدور حول الحجر الذي لا يزيد حجمه على حجم حبّة ليمون:

– أدخل يدك أو رجلك فيه، وستشكر صاحب الجلالة المُفدّى الذي أنزلك هذه المنزلة العظيمة!

رفعتُ قدمي وهممتُ بوضعها على الحجر، فسمعتها تهدل قائلة:

– إقامة سعيدة.

وما إن لمس باطن قدمي الحجر، حتى وجدتُ نفسي في أرض غير الأرض التي كنت فيها. وعيتُ أنّني أقف على دربٍ مرصوفةٍ بالذهب، في بستانٍ مُشذّب على مدّ النظر. الهواء عذب غنيّ بالأوكسجين، ومُضمّخ بشذى المسك والياسمين. السماء لازوردية باهرة الصفاء، يشعشع فيها نور آتٍ من خارج قبّتها. مشيتُ، وأنا أتأمّل الجمال الذي يحيطني مبهورًا! الأشجار كلّها في طولٍ مُوحّد، وكلّ شجرة تحمل ثمارًا مختلفة عن الأخرى، والعشب مقصوص في عناية فائقة ويتموّج تموّجًا خفيفًا. تَلَوَّت الجادّة ولاح في نهايتها قصر فخم هرمي، تسطع منه ملايين الألوان التي تجلب السرور إلى قلب الرائي. سعيتُ نحوه، وأنا مأخوذ بهندسته المعماريّة، وقد غُطّي كلّه بالفسيفساء التي تكشّفتْ تدرّجًا عن مناظر تحوي رموزًا كثيرة، ميّزتُ بينها الصليب المعقوف، وأرقامًا ربّما لها علاقة

بـ«متتالية فيبوناتشي» وكتابات بأبجديّة لا أعرفها، وصورًا لحيوانات لها رؤوس بشرية، وبشر لها رؤوس حيوانية، أحدها لمخلوق له جسد بشري ورأس ابن آوى، وهو ذلك الهُوْلَة الذي رأيته عيانًا لمّا شخصتُ ببصري إلى السقف تزامنًا مع خروج الرصاصة من قحف جمجمتي. في أعلى الهرم قريبًا من قمّته، تعرّفتُ إلى صورتي! أعترف بأنّ جسمي اجتاحته قشعريرة خوف حينَ وقعتْ عيني على ملامح وجهي. كنت وسط حاشية تحفّ بعرش ملك يضع قناعًا. تساءلتُ عمّا إذا كان كلّ شيء مُعدًّا سلفًا بما في ذلك أن أُصبح فوهرر الرايخ الثالث، وأن أفعل ما فعلتُ به تنفيذًا لمشيئة القدر! فهمتُ أنّني آتٍ وأضرب كلّما حمي غضب الرب، وأنّني صنو نبوخذ نصّر، مقلاع تُؤدّبُ به شعوب الأرض.

دخلتُ القصر ورحتُ أستكشفه. الجدران خضراء ملساء يُرى ما خلفها، وكذلك الأرضية خضراء تعلو سطحها فقاقيع كحبب القهوة، حين تطأها القدم تنفث رذاذًا منعشًا عطرًا يمنح السائر عليها شعورًا بالراحة والدفء.

لا وجود مطلقًا للأثاث، وحتى الغبار لا وجود له، فالأروقة والحجرات تلمع من النظافة. فكّرتُ في أنّ هذا مسكن لا يلائمنا نحن البشر، لأنّنا نحتاج إلى السجاجيد والأسرّة والكراسي المريحة، نحتاج إلى أدوات المطبخ والسفرة والراديو والجرائد، نحتاج إلى مقتنيات لا أول لها ولا آخر لنشعر بأنّنا بشر على قيد الحياة! لا أعرف كيف يعيش هؤلاء القوم في قصور كهذه تخلو من وسائل الرفاهية والترفيه! كنت أريد الاحتجاج كنزيل فندق تعرّض للخداع، فكّرتُ ساخطًا في أنّ لو كانت هذه هي الجنّة، فإنّها لا تطاق أكثر من خمس دقائق! أردتُ مرآة لأرى وجهي، لم أعرف كيف أتصرّف للحصول على واحدة، تعكّر مزاجي وغدوتُ نزقًا فرحتُ أصرخ مُجدّفًا. فجأة ظهر هاتف مصنوع من الماس يُحلّق في الهواء بلا شيء يسنده ولا سلك موصل به. رفعتُ سمّاعة الهاتف وضغطتُ على الرقم الوحيد المتاح «1». ردّ عليّ صوت ناعم لزج:

– مرحبًا، تمنيّاتنا لكم بإقامة طيبة.

قلت بصوت كالرعد:

– هل أكلّم الإدارة المسؤولة عن الجنّة؟

أجاب الصوت الناعم:

– نعم، أيّ خدمة؟

قلت بلهجة تتفجر صلفًا:

– اسمع أيّها الشاذّ... أنا اسمي أدولف هتلر، وأريد أن أبلّغكم احتجاجي الشديد، الشديد للغاية، على رداءة الخدمات التي تقدّمونها للنزلاء عندكم.

كفّ الطرف الآخر عن ترخيم صوته، وتكلّم كجندي في طابور عسكري:

– نحن متأسّفون سيدي... جميع طلباتك ستُلبّى فورًا.

* * *

وُفّرتْ للسيد الذائع الصيت أدولف هتلر ملايين الأصناف من الشوكولاته والحلويات، ووُضعتْ في تصرّفه حاشية من عشرة آلاف وصيف ووصيفة للعناية به والسهر على راحته. أُنشئتْ «أكاديمية الفوهرر للفنون التشكيلية» ونُصّب عميدًا. مُنح جمهورًا يفوق سواده العشرة ملايين نسمة ليخطب فيهم خطبه القومية النارية. سُمح له ولأنصاره المتحمسين بطبع شعار الصليب المعقوف على جدران الجنّة وأرصفتها، وكذلك رفع الرايات النازية على بوابات الفردوس، وغيرها الكثير من أعمال البروباغندا، وتم التغاضي عن تجاوزاته.

استدرج الآنسة حوّاء إلى قصره المسمّى «وكر الذئب» وعاشرها بالإكراه – لأنّ التلامس الجسدي في دار الخلد ممنوع – واحتجزها عنده ولم يسمح لها بالمغادرة البتة، وسُتّرت فعلته.

قال أنّه لا يستطيع أن يحيا من دون عرّاف، فأُرسل إليه العرّاف سيلبا ليكون في تصرّفه. طلب كمّيات هائلة من البنادق والذخيرة والطائرات والدبابات والمدافع الثقيلة، فاستُجيبَ لطلبه من دون أدنى تلكّؤ. أنشأ جهاز استخبارات (الجنّة-ستابو) لرصد المتسلّلين غير الشرعيين، ولتدوين الملاحظات السلوكية عن العموم، فلم يعترض عليه أحد.

أسّس وحدة خاصة (N.N) مهمّتها تعقّب الأجناس غير البشرية المصنّفة كائنات فضائيّة دُنيا، ووجّه باعتقالها في معسكرات سرّية وإبادتها خنقًا في أفران الغاز، فلم يجرؤ أحد على فضحه... بسط سيطرته على شبكات الاتصالات فوق الجلد «النيت» وتحته «النوتيز» وبدأ يُحضّر للانقلاب. استشار العرّاف سيلبا، مُعربًا عن نواياه في صورة مواربة، فقال أنّ في طالعه الفلكي علامة إيجابية عليه أن ينتظر ظهورها، وبيّن له أنّ الانفجار النجمي الذي سيحدث في كوكبة (شجرة الخلود) سوف يمنحه قوة لا حدود لها.

في التاريخ المُعيّن من العرّاف، شنّ أدولف هتلر هجومًا كاسحًا بالدبابات والطائرات على مقرّ الملك، واقتحم مليون جندي مسلحين حتى الأذقان القصر الملكي فلم يجدوا أدنى مقاومة. بعد تأمين المكان وإحكام السيطرة عليه، عبر أدولف هتلر إلى قدس الأقداس وحده ومعه مسدّسه الشخصي لا غير. في خطوة واسعة تعكس الجرأة ورجل صلبة تدقّ الأرض كالمطرقة، تقدّم غير هيّاب وصدره بارز إلى الأمام، ويده على جراب المسدّس تحسّبًا لأيّ طارئ. لم يجد أحدًا... فتّش المكان في دقّة فوجد علبة زمرديّة شفّافة داخلها قصاصة ورق... عاوده الشعور المُنغِّص بالارتياب مرّة أخرى، فرَدَ القصاصة المطوية وقرأ ما فيها... اندلع من منخريه زفير حارّ، ضغط القصاصة في راحته بكلّ قوّته ثم رماها، راح يركل العلبة الزمرديّة في جنون مُبعبعًا بكلام غير مترابط، وآخر الأمر أخرج مسدّسه وعمّره وأولج فوّهته في فمه، وهو يلعن كلّ من شارك في المؤامرة، ثم ضغط الزناد.

كُتب في السجلّات أنّ هذه الحادثة ما إن تنتهي حتى تبدأ من جديد. يقولون هناك أنّها دراما أبديّة، ومع ذلك وفي كلّ مرّة يُعاد عرضها تبدو أكثر تسلية وتشويقًا من سابقاتها.

بروباغندا ستالين

عشاء الوداع

امتعض ستالين كأنّ ذبابة سقطت في حساء الـ«خارتشو» فكفّ عن الأكل. فكّر في أنّه حتى وكالة «C.I.A» لم تتجرّأ يومًا على تلفيق شيء كهذا. نقر بأنامله على حاجب عينه اليمنى كمن يضرب على آلة كاتبة:

– أين هي الآن؟

– الرفاق البلغاريون وضعوها في السجن، ردّ بيريا وهو يمطّ فمه ليوحي بابتسامة مجلجلة.

أطبق الصمت على مائدة العشاء، وتوقّف القادة هم أيضًا عن تناول الطعام.

راح بولشاكوف يثرثر عن فيلم رعاة البقر الأميركي الذي شاهدوه ذلك المساء، لكن لم يبادله أحدٌ الحديث، فأخذ يتحسّس ناصيته، محرجًا، وكفّ عن الاسترسال.

صاروا ثلاثة عشر رجلًا حول المائدة، بعدما انضمّ إليهم إنياتيا وزير أمن الدولة.

وجَّه ستالين نظرة ثاقبة إلى بيريا:

– هل يعتقد الرفيق لافرينتي أنّني سأموت العام المقبل؟

شحب وجه بيريا، واسترق نظرة إلى مالينكوف كأنّما يستغيث به:

– هذه مجرّد خزعبلات... من تكون؟ إن هي إلّا امرأة ضريرة مسكونة بالشياطين.

رمقه ستالين، ساخرًا. شبك بولغانين أصابعه، وعلّق بخبث:

– كنت أحسب أنّ الشياطين لا وجود لها...

عقد بيريا حاجبيه، وتكلّم بلهجة شوارعيّة صفيقة:

– إنّه تعبير مجازي... أوه نسيت أنّك لم تتلقَّ دروسًا في الأدب!

همّ بولغانين بأن يردّ الإهانة، وأن يكيل له الأعظم منها، إلّا أنّ ستالين تململ في مقعده في الطريقة التي يعلن فيها أنّه متضايق من مسار الحديث.

دخل معاونه الخاصّ، ووضع ورقة قرب كوب العصير. قرأ ستالين محتويات البرقيّة وكتب تعليماته، تريّث قليلًا ثم شطبها، صعدت زفرة حارّة من بين أضلاعه، لكنّه في إرادة حديديّة لا تلين أطبق فمه وأجبرها على الخروج من منخريه... إذ إنّه لم يسمح لإنسان مطلقًا بأن يسمعه وهو يتنهّد. كتب تعليمات جديدة في بطء ووقفات تعكس تردّده وشرود ذهنه.

أخذ المعاون الورقة ومضى حاني الكتفين، متعجّلًا وعلى وجهه تلك المسحة التي تعني أنّ ضميره سيؤنّبه حتى في العالم الآخر، إذا حلّ الدمار في الكرة الأرضية بسبب تأخّره بضع ثوانٍ في إبراق الأوامر.

راح ستالين يدندن لحنًا، ناسيًا مَن حوله، ثم التفت بغتة إلى بيريا، وقال:

– هل ذكرت فانغا كيف سأموت؟

ازدرد بيريا ريقه، وخفض بصره، ثم أجاب:

– نعم.

– حسنًا! ردّ ستالين وهو يتثاءب، متلمّسًا كوع ذراعه اليسرى المعطوبة.

استبدّ الفضول بالنخبة التي تتحكّم في نصف الدنيا وتركّزت أنظارها على شفتي بيريا:

– أرجو إعفائي... ليس من الذوق... يعني كما تعلمون... ونحن نأكل

ذكر تلك الأشياء (تتحنح) لكنّ الأفضل أن أرفع لكم التقرير المكتوب.

ابتسم ستالين، وظهر في عينيه ذلك البريق المهدّد بالموت، قائلًا:

– رفيق لافرينتي هلّا احتسيت قدحك كي ينطلق لسانك.

انتقلت عدوى ابتسامة الزعيم إلى شفاه الموجودين كافّة، وهم يراقبون بيريا يتجرّع كأسه. نظر ستالين إلى النادل الوحيد الذي يخدمهم ونقر بسبابته على حنكه، فأتى النادل الأصمّ بقارورة شراب وملأ كأس بيريا.

ابتسم بيريا، مجاملًا وهو يرفع كأسه، ثمّ عبّها في نَفَسٍ واحد. تضرّجتْ وجنتاه، وسالت الفودكا على جانبي فمه، فمسحها بمنديل، وقال:

– تقول حرفيًّا أنّك أزهقت أرواح الملايين من البشر بسبب انحراف مزاجك، وسبب انحراف مزاجك هو أنّك لا تعرف كيف تتغوّط... إنّ عدم استجابتك لنداء الطبيعة يؤدّي بك إلى الإمساك وامتصاص موادّ ضارة عبر الأمعاء تُهيّج الجهاز العصبي وتجعلك عصبيًّا منحرف المزاج... تقول أنّك تؤخّره حتى يتحجّر في أمعائك، ثم تمضي الوقت الأثمن من حياتك الذي يحصل فيه الإنسان العادي على الراحة وأنت تزحر وتزحر، وآخر الأمر ستنتهي هالكًا بجلطة في المخّ!

استمع ستالين بانتباه بالغ وظلّ جامدًا لبرهة بدت أطول من الأبد، ثم استعاد رباطة جأشه، وقال:

– بطل الاتحاد السوفياتي... قاهر هتلر... يموت ميتة غير بطولية!

كادت ضحكة غير لائقة تفلت من خروتشوف، لكنّه تمالك نفسه محافظًا على مظهره الوقور. قال في نفسه: «يا له من تحليل عجيب! إنّه بالفعل شخص يرفض تلبية نداء أيّ أحد، أيّ شيء، إنّه يصمّ أُذنيه ولا يسمع سوى صوت نفسه، إنّه حتى لا يستجيب لنداء الطبيعة... يا للمأساة!».

لاحظ ستالين حبّات العرق التي تدحرجت على صدغ بيريا، ثم أخذ يقهقه بشخير أثناء كلامه:

– عندما أموت دوّنوا في تقرير طبّي هاها... أنّ سبب الوفاة هو أنّه كان يجهل كيف يتغوّط هاها!

واصل ستالين ضحكاته المتشنّجة، وجارته الدائرة المقرّبة من الأتباع، مولوتوف أولًا، وبعده كاغانويتش، وروشيلو، لوزغاتشيف. أمّا الباقون فلم يضحكوا، بل فضّلوا كتمان مشاعرهم، لأنّ لكلٍّ منهم – المضطغن والخِلّ الوفي – أسبابه الخاصّة.

التأشيرة

انسَطَح ستالين على أرضيّة الغرفة، مشلولًا عاجزًا عن الكلام.

حطّتْ حمامة ذات ريش أسود وغرّة بيضاء على النافذة، وأخذت تحدّق من زاويا متعدّدة في ستالين المُستلقي على ظهره، ثم راحتْ تهدلُ مُذيعة النبأ.

قبل دقائق فقط، كان قاعدًا على المرحاض يزحرُ بقواه كلّها لتنظيف أمعائه من الفضلات، وشعر بالدماء تسيل من شدّة ضغطه على عضلات الشرج. ها هو اليَبَس يطارده ويكاد يقهره؛ لقد دمعتْ عيناه لكنّه لم يستسلم، كزَّ بأسنانه حتى صدرت منها طقطقة سحج بعضها ببعض. ثم فجأة أرجع رأسه إلى الوراء كأنّه تلقّى رصاصة، وسمع داخل جمجمته صوت تَكَّة كطرقة على الباب.

تقيّأ وخرج من الحمام، مترنّحًا غير قادر على تمييز الاتجاهات. ثم أخذ ذهنه ينشط في طريقة مختلفة... تهيّأ له أنّه دخل الحمّام مرّة أخرى، وعندما رفع غطاء المرحاض صعد من الماء قرد له ضحكة بشرية، ثم قفز متشبّثًا برأسه، فأصابه رعب لا يُوصف وغاب عن الوعي.

الفرز

سأله الملاك:

– ما عملك؟

تلمّس ستالين ذراعه غير مصدّق أنّها عادت سليمة، وقال:

– موظّف في الأرصاد الجوّية.

دوَّن الملاك جوابه في كرة تتكوّن من ترليونات أحجار الماس؛ أخذت كرة الماس تدور وصدر منها وميض يخطف الأبصار وطنين يزعزع الأفئدة، ولما توقّفت، تراصّ الماس الأسود فظهرت نتيجة ستالين: معلّم في مدرسة الحوريات.

طفتْ ابتسامة ظافرة على ثغر ستالين، وقال في نفسه: «لقد ربحتُ الحياة الأبديّة في الجنّة».

أثناء الرحلة، ارتدى جلد ملايين النساء والرجال الذين عذّبهم، وذاق آلامهم جميعًا دفعة واحدة... لقد تلقّى شحنة ألم متزامنة تبلغ سرعتها سرعة الضوء، وتساوي شدّة إهلاكها جاذبيّة ثقب أسود.

التعارف

وضعوني في قصر فخم يليق ببرجوازي متعفّن. لم يكن لديّ ما أفعله، كنت أعيش حياة أولئك الأغنياء المنحلّين العاطلين بالوراثة.

أمضيتُ أغلب وقتي في النوم، كأنّ ذبابة تسي تسي قد لدغتني، ورأيتُ ملايين الأحلام، ولكن لم يعلق منها واحد في ذاكرتي، كان حلم يتبدّد ليحلّ محلّه آخر، وهكذا... ما نوعيّة الحياة في الجنّة؟ إنّها ليست سوى أن تنام وتحلم... لا شيء واقعي البتة.

صحوتُ على صوت طرقات على الباب الخارجي لقصري، فهرعتُ لفتحه، وقلت في نفسي لو كان الطارق أسدًا جائعًا فأهلًا به، لن أمانع مطلقًا أن يلتهمني، فقد تعبتُ من هذه الأبديّة الخاملة المُجزّأة بين ملايين لا تحصى من الرؤى والكوابيس.

فتحتُ الباب، فإذا بي أمام منظر مذهل، رأيتُ على مدّ الأفق بحرًا من الحوريات الفائقات الجمال؛ كنّ ينظرن إليّ بمودّة وينتظرن منّي أن أدعوهنّ إلى الدخول، لكنّني تجمّدتُ كتمثال برونزي وعجز لساني عن النطق، لأنّه لم يسبق لي من قبل أن رأيتُ هذا الطوفان من الأجساد العارية.

اخترق صفوفهنّ فحل وحيد يرتدي حلّة أنيقة، متوسّط القامة، رشيق القوام، طويل الوجه، واسع الجبين، أشقر اللحية والشاربين، عيناه فيهما بريق ذكاء حادّ، وفمه بديع التكوين يعطي انطباعًا بنهم صاحبه للطعام وشبقه للنساء.

اقتربَ منّي، مبتسمًا وصافحني مُعرّفًا بنفسه:

– وليَم شكسبير، أستاذ مادّة المسرح في الأكاديمية.

شعرتُ بالارتياح الفوري له، ولولا الحياء لعانقته. بادلته الابتسام وعرَّفته بنفسي:

– جوزيف ستالين.

ثم استدركتُ بلباقة:

– ولكنّني حتى الآن لا أعرف المادّة التي سأدرّسها، ربّما سأعلمهنّ التنبّؤ بالطقس!

ضحك شكسبير، متوهّمًا أنّني ألقيتُ طرفة. قال وهو يشير بذراعين مفتوحتين إلى الصبايا العاريات:

– وهؤلاء طالبات الأكاديمية جئن للترحيب بك، فهل تسمح لنا حضرتك بالدخول؟

ما كدتُ أنطق «تفضّلوا»، حتى تدافعن أفواجًا إلى قصري، فلجأتُ إلى ركن حصين، مبعدًا نفسي من طريقهنّ ولغطهنّ المرح.

شبك شكسبير يده بيدي وهو يتأمّلهنّ، مزهوًّا، وقال:

– إنهنّ فضوليّات، والفضول كما تعرف صفة أنثويّة أصيلة هاها!

جاريته في الضحك، رغم أنّني لم أفهم ما هو المضحك في كلامه، لكنّني أحسستُ من توقّد عينيه أنّه يُلمّح إلى شيء ما!

الأكاديمية

أكملتُ اللوحة التي طلبتها منّي الأكاديمية، كانت هناك حورية غاية في الحسن اسمها مريم تحضر عندما أطلبها لأرسمها. حملتُ اللوحة – زيت على قماش – ملفوفة في ورق فاخر، وخرجتُ مستسلمًا للنوتيز [1]

المصبوب في كُرتي عينيّ ليقود خطواتي؛ مشيتُ في وادٍ أجرد تغطّيه الصخور والحصباء، ووصلتُ إلى صخرة في حجم كرة القدم منحوتة على شكل العضو التناسلي للمرأة... كانت الأكاديمية! أدخلتُ أصابع قدمي اليسرى في الفرجة، وفي طرفة عين وجدتُ نفسي في واحدة من أجمل المدن التي يمكن بشريًّا أن يراها؛ انفجار مذهل لعدد لانهائي من المباني الرائعة، لكلٍّ منها طرازه المعماري المختلف عن الآخر. لم تكن تشبه في شيء نمط العمارة الخشنة المتقشّفة الذي اضطررنا إلى اعتماده في فترة حكمي الاتحاد السوفياتي. رحتُ أتمشّى في جادّات الأكاديمية مذهولًا ناسيا ما أتيتُ لأجله؛ رأيتُ أنّ أهلها أحرزوا تقدّمًا عظيمًا في فنّ العمارة، فشعرتُ بالخجل من لوحتي الزيتية المتواضعة.

استقبلني شكسبير، وصافحني بحرارة وفرح صادقين. سألني عن صحّتي، فأجبته بكلمة واحدة. لاحظ افتتاني بالمباني حولي وبصري الزائغ من جهة إلى أخرى، فشرح لي والابتسامة الطيبة لا تفارق وجهه:

– هذه المنازل الجميلة التي تراها كلّها من تصميم طالباتنا في الأكاديمية، لقد اخترعن موادّ بناء مقاومة للجاذبية، لذلك أمكنهنّ عمل تصاميم معمارية خارقة للطبيعة وعصيّة على التصديق بالنسبة إلينا نحن البشر.

أصغيتُ إليه، وأنا أُحدّقُ في مبنًى صعقني جماله، مُصمّم على شكل ملعقة يتموضع طرفها المدبّب على الأرض وينحني هيكلها في الهواء بزاوية 160 درجة من دون أعمدة تسندها، وفي قعر طرفها العريض حجرات بجدران شفّافة. مبنى آخر أثار اهتمامي مصمّم على شكل نحلة معلّق في الهواء ويدور في بطء حول نفسه. مبنى يخطف الأنفاس على شكل شهاب يمتدّ كخطّ مقوّس في السماء في طرفه نجمة خماسيّة الأضلاع خضراء اللون تضمّ داخلها سكنًا يحظى ساكنه بإطلالة رائعة، ومباني على مدّ البصر في أشكال لا أول لها ولا آخر.

صبر عليّ شكسبير حتى شبعت روحي من ارتشاف هذا الجمال الخلّاب، ثم سألته هل نذهب إلى إدارة الأكاديمية، فأجابني بلطف إنّ

الأساتذة في انتظاري. شكسبير شخص بالغ التهذيب ولا يملك المرء إلّا أن يكنّ له عميق الاحترام.

تلقّاني البروفيسورات بمصافحات دافئة، وأهداني كلّ واحد منهم تفّاحة راتنجية [2] ليست للأكل، مكوّنة من عطور مركّزة تفوح أريجًا يسكر الحواس ويمنح المرء شعورًا بأنّه يُحلّق بين النجوم، ويكفي الضغط الخفيف عليها بالأنامل لتمتزج عناصرها الكيميائية ببدن الإنسان فتفرز مسامات الجلد الرائحة العطرة.

عرّفوني إلى أستاذ غريب الأطوار، لم يكلّف نفسه عناء مصافحتي، صامت، له وجه خالٍ من المشاعر كالحجر، قالوا اسمه سدهارتا.

نزعتُ الورق عن لوحتي، فشهق أعضاء الهيئة التدريسية لروعتها، وراح كلّ واحد منهم يكيل لي المديح. راقبتُ سدهارتا بطرف عيني، ولاحظتُ أنّ وجهه ممتعض من الغيرة كأنّه عضّ ليمونة حين سمعهم يثنون على لوحتي. توافقوا على عرض لوحتي في متحف الأكاديمية الفنّي – المسار الرقم واحد – ليتاح للحوريات من عاشقات الفنّ التمتّع برؤيتها وتأمّلها. طلب منهم رئيس الأكاديمية البروفيسور كونفوشيوس أن يُريني كلّ واحد منهم مؤخّرته تعبيرًا عن التقدير والاحترام اللذين يكنّونهما لي، فوافقوا جميعًا في كلّ أريحية، باستثناء سدهارتا الذي غادر من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة.

المزحة

يا للعار!... لقد عُيِّنت أستاذًا في مادّة التربية الجنسية! كان مطلوبًا منّي أن أُعلِّم الحوريات فنون الغزل وأسرار الفراش. كنت مُلزمًا إنزال بنطالي أمامهنّ لأشرح لهنّ دروسهنّ. لقد لعنتُ في سرّي حظّي الرديء الذي أوقعني في عمل مخجل ومذلّ كهذا، وفكرتُ في أنّ تكليفي هذا العمل ليس سوى مزحة سمجة من الربّ. كان عليّ أن أمرَّ عليهنّ حورية حورية لأريهنّ ما بين فخذيّ، وتخيّلوا الوقت الذي تمكثه كلّ صبية منهنّ في تفحّصه وجذبه ومطّه، وجسّه وفركه، وعصره وليِّه، وقرعه ونقره، وقياس

طوله وعرضه، وسلامة عروقه وصحّة جلده، وجمال طلّته، وهيبة حضوره، وقوّة شخصيّته وفصاحته، وكمال أخلاقه وتربيته، وحسن سيرته وسلوكه، وتحرّي شجاعته وإقدامه، والتثبّت من شرفه وكرم محتده، ورشده واعتدال مزاجه، وملاحته وظرفه، وحذقه وسرعة بداهته، وبعد ذلك كلّه يسألنه عن اسمه وسنّه، وأين تلقّى العلم ومَن أساتذته، وهواياته ومواهبه، وما صنعته التي يكسب منها رزقه!

وكنت مضطرًّا إلى كشف عورتي مع بداية كلّ درس جديد لأعيد لهنّ الشرح مرّة أخرى. فإضافة إلى غبائهنّ المريع، وإلى أنهنّ بلهاوات لا يعرفن شيئًا بالمرّة عن طبيعة المهمّة التي خُلقن لأجلها، كنّ لا يبذلن أيّ مجهود في حفظ دروسهنّ، وكنّ مهملات في حلّ الواجبات التي أُكلفهنّ إيّاها ويعشن حياتهنّ كما يَعِنُّ لهنّ... وما زاد حنقي أنّ إدارة الأكاديمية كانت متساهلة معهنّ، ولا تُصغي لمقترحاتي فرض عقوبات صارمة عليهنّ.

أنا لست آلة، وهذا التكرار اللانهائي، جعلني أتأرجح على حافّة الجنون. أعلم أنّ الربّ ينتقم منّي بهذه الطريقة... يجعلني أُكافح لتعليمهنّ إلى الأبد من دون جدوى. ربّما كنّ متّفقات معه على ادّعاء الغباء لاستنزافي روحيًّا... لكن، من الواضح أنّهنّ صُمِّمنَ في درجة ذكاء منخفضة عمدًا لكي يتقبّلن وضعهنّ كعاهرات من دون مقاومة.

لقد تقدّمت بشكوى أطالب فيها بإرسالي إلى الجحيم، احتجاجًا على الإذلال اليومي الذي أتعرّض له، لكنّ الإدارة رفضت طلبي.

تصاعدتْ خلافاتي مع القميء سدهارثا، الذي تبيّن لي أنّه مدرّب اليوغا أو ما شابه، لا أستاذ بمعنى الكلمة، وصار يُعيّرني عندما يصادفني بكلمات لا يليق ذكرها هنا، مع ذلك تحمّلته وكظمتُ غيظي، إلّا أنّه حقّق هدفه في النهاية حين عثر على نقطة ضعفي، فأسرَّ لي أنّ الحوريات اللاتي أُدربهنّ على أوضاع المعاشرة الجنسية سيذهبن في نهاية المطاف إلى أحضان رجال الطبقة الغنية، وأنّ رجال الطبقة العاملة ليس لهم مكان في الجنّة.

استوضحتُ الأمر من طالباتي، فكشفن لي أنّ كلّ واحدة منهنّ تعرف اسم فارس أحلامها المنتظر! سألتُ الحورية مريم عن اسم فارسها، فأجابت وهي ترمش حياءً: «آدم سميث». صعقتني المفاجأة، ولم أقدر على الكلام. وراحت الحوريات من تلقاء أنفسهنّ يسردن على مسامعي أسماء فرسان أحلامهنّ: ماير أمشيل روتشيلد، جون روكفلر، هوفمان أويري، صاموئيل كرتيس جونسون، وليَم والس كارغل... إلخ. أولئك الرأسماليّون الذين استولوا على ثروات خرافية.

غادرت الأكاديمية وأنا أرتجف من شدّة الغضب، وقد اتّخذتُ قرارًا لا رجعة فيه، وهو عدم التدريس فيها نهائيًّا.

لبثتُ في قصري منكبًّا على إعادة تدوين «رأس المال» لكارل ماركس غيبًا من الذاكرة، وقد قررتُ القيام بخطوة تُرضي ضميري.

زارتني الهيئة التدريسية – باستثناء سدهارثا – للاطمئنان على صحتي، ولثنيي عن قراري اعتزال التدريس في الأكاديمية. أخبرتهم بأنّني لم أعد معترضًا على تدريس مادّة فاضحة، لكنّني أعترض بشدّة على مكافأة الحثالة القذرة المُسْتَغِلَّة من الرأسماليين بطالباتي للتمتّع بهنّ. أنبأتهم بأنّني قد أنهيتُ تدوين كتاب «رأس المال»، وبأنّني أرغب في تحديد موعد مع الرفيق الأعلى لأسلّمه المخطوطة يدًا بيد. حذّروني من أن أحدّد موعدًا للقائه، لأنّ الذين ضُرِبت لهم المواعيد لم يلتقوا به قط. وقعتُ في حيرة من هذا التناقض ونظرتُ ناحية صديقي شكسبير مستنجدًا، فقال بعد تفكير:

– الحلّ أن تحمل الكتاب معك دائمًا، لأنّه لا يمكنك أن تلقى الرفيق الأعلى إلّا مصادفة، فإذا ابتسم لك الحظّ وصادفته، فناوله كتابك.

صحّحتُ له:

– الكتاب ليس لي، إنّه للمفكّر الشيوعي العظيم كارل ماركس.

صدرتْ مني زفرة تعبّر عن تبرّمي، وقلت:

– اسمحوا لي أيّها الزملاء، الرفيق الأعلى فوضوي.

دافع رئيس الأكاديمية كونفوشيوس عنه، وابتسامته العذبة لا تفارق

شفتيه:

– ليس لديك أدنى فكرة كم هو متواضع وبسيط، ويبذل الحبّ الخالص من أيّ غرض لأيّ شخص... الناس هنا يصادفونه في أماكن كثيرة فيصافحونه ويكلّمونه، يتجمّعون حوله فيروي لهم النكات اللطيفة، إنّه يفعل ما في وسعه لإبهاجهم، يطرق الأبواب ويدخل المنازل حاملًا معه الهدايا... إنّه مشغول بإدخال السعادة على القلوب، لا بضرب المواعيد لخوض نقاشات فلسفية.

بذلتُ جهدي للسيطرة على غضبي، فاعتدلتُ في جلستي وتكلّمتُ بهدوء:

– لا شكّ في أنّ الرفيق الأعلى طيّب، لكنّني لا أفهم سبب وضعه رفاقي الشيوعيين في الجحيم، وهم الذين ضحّوا من أجل الفقراء!

استمرّ جدالنا طويلًا، لكن حتى صديقي المقرّب شكسبير لم يتمكّن من إقناعي بأنّ ما فعله الربّ هو الصواب.

عندما تأهّبوا للمغادرة، وجّهوا إليّ الدعوة لحضور مسرحيّة «هاملت» التي ستقدّم على خشبة مسرح الأكاديمية؛ همس لي شكسبير بأنّ الرفيق الأعلى لا يُفوّتُ أيّ مسرحيّة من مسرحيّاته، ونصحني بأن أُحضر معي مخطوطة «رأس المال».

المفاجأة

احتشد أكثر من مليار شخص لمشاهدة مسرحيّة «هاملت».

نحن هنا نتحكّم في المقاييس كما نشاء لتوائم أغراضنا، منصّة المسرح كُبِّرت ملايين المرّات وكذلك أحجام الحوريات، ونحن الجمهور ضغطنا أحجامنا ليتّسع لنا المجال للمشاهدة. ولكي أُقرِّب الصورة إلى أذهانكم، فإنّ خشبة المسرح صارت عملاقة بحجم كوكب زحل، ونحن الجمهور توزّعنا في حلقات تشبه تلك الحلقات المحيطة بزحل.

أعضاء هيئة التدريس في الأكاديمية جلسوا في الحلقة الأولى، وجلستُ أنا في الحلقة الأخيرة لأتأمّل الانفعالات التي ترتسم على وجوه

النّظّارة.

قدّمتِ الحوريات أداءً تمثيليًّا متقنًا، وتلميذتي النجيبة الحورية مريم أدّت دور هاملت ببراعة تفوق الوصف.

عندما أُسدل الستار دوّى تصفيق جماعي، وراح الجمهور يهتف باسمي: «شكسبير... شكسبير... شكسبير». صعدتُ خشبة المسرح وحيّيتُ الجمهور، فتحوّل الهتاف هديرًا يصمّ الآذان.

ارتقى كونفوشيوس رئيس الأكاديمية خشبة المسرح، وهو يحمل رسالة ملفوفة موضوعة في طبق يشعّ منه نور لطيف قويّ لا يجهد البصروووقف أمامي، وفورًا عمَّ صمت جليل ترقّبًا لمعرفة محتوى الخطاب المرسل من الرفيق الأعلى.

أخذتُ الرسالة ونشرتها، وقرأتُ ما ورد فيها بصوت جهوري: «يا هذا الذي تسمع وتبصر، إنّي آمرك بالسجود لشكسبير تكريمًا له».

وما كدتُ أرفع رأسي عن الورقة، حتى خرّ الجمهور على الأرض لي ساجدًا، وكذلك فعل كونفوشيوس رئيس الأكاديمية والأساتذة والحوريات كلّهنّ وعلى رأسهنّ مريم... كان مشهدًا مهيبًا لا يتكرّر في تاريخ الكون.

لكنّ المفاجأة أنّ صديقي الذي فضّلته على الأصدقاء كلّهم جوزيف فيساريونوفيتش ستالين أبى أن يسجد لي، وظلّ جالسًا على مقعده واضعًا رجلًا على رجل وهو يُحدّق فيّ بازدراء!

حين رفع القوم رؤوسهم استغربوا جرأة ستالين على عصيان أمر الرفيق الأعلى... سابقة لم يفعلها أحد قبله، وحلَّ الوجوم على الوجوه.

سألتُ جوزيف ستالين بصوت شرخه الحزن:

– لماذا لم تسجد لي؟

وقف جوزيف ستالين، وكلّمني مقطّب الجبين ونظراته حادّة تكاد تشقّني نصفين:

– هذا الذي تقدّمه مسرح منحطّ يخدم أهداف الطبقة البرجوازية.

قلتُ وقد اغرورقتْ عيناي بالدمع:

– وماذا تريد مني أن أُقدّم؟

صعد جوزيف ستالين إلى جواري، وتحدّث مخاطبًا الجماهير الغفيرة:

– هذا المهرّج المدعوّ شكسبير يخدعكم، يُخدِّر عقولكم بتفاهات عن الطبقة المخملية... لماذا لا يقدّم في مسرحيّاته شيئًا عن معاناة الفقراء والطبقة الكادحة؟ إنّ أيّ كاتب لا يلتزم الواقعية الاشتراكية في مؤلَّفاته، إنّما هو خائن لطبقته وضميره الإنساني ميت...

واستمرّ جوزيف ستالين في محاضرته الثورية والجميع منصتٌ له، وحين انتهى رمى مخطوطة «رأس المال» في وجوهنا، فتناثرتْ أوراقها في الاتّجاهات كلّها، وغادر وقد احتدم غضبه تاركًا الجميع في حالة من الذهول التامّ.

الصعقة

دهمتْ قوّة من الملائكة الأشدّاء قصري، ووضعوا القيود الحديد في يديّ وقدميّ. أتى مُبغضي سدهارثا معهم، وتلا على مسامعي الحكم الصادر في حقي والساري النفاذ، القاضي بطردي من الجنّة وإرسالي إلى جهنم.

قلتُ لسدهارثا الذي تظاهر بالأسى مطرقًا رأسه:

– هل اختارك الرفيق الأعلى أنت بالذات كي تشمتَ بي؟

اختلس سدهارثا نظرة خاطفة إليَّ، وظهر الألم على وجهه، قائلًا:

– كلّا... أنا متألّم من الأشياء التي بلغتني عنك.

أثار فضولي، فسألته:

– وأيّ شيء بلغك عنّي؟

أجاب، وهو ينظر في عينيَّ مباشرة:

– أنت أوغد إنسان قابلته في هذا الكون والأكوان الأخرى كلّها.

ضحكتُ ساخرًا منه، وقلت:

– هاها... حقًّا؟! حسنًا يا سدهارثا لك أن تشتمني الآن كما يحلو لك فأنت من ربح في النهاية.

تكلّم، عاقدًا ذراعيه:

– لقد قلت على لساني أمورًا لم أقلها.

قلت له:

– مثل؟

تنهّد، ثم أجابني:

– نسبتَ إليَّ أنّني قلت لك أنّ الأغنياء يدخلون الجنّة والفقراء مأواهم النار... وهذا كذب... أنا قلت لك أنّ الجنّة يدخلها الفقراء ونادرًا ما يدخلها غنيّ.

قلت له:

– أنا لم أكذب، ولكن ربّما لم أسمعك جيّدًا.

تابع سدهارثا التحديق في عينيَّ بطريقة مؤذية:

– ولماذا كذبت وزعمت أنّنا أسندنا إليك تدريس مادّة التربية الجنسية؟... هل ستتحجّج بضعف السمع أم ماذا؟

جعلني الملعون أستشيط غيظًا، فرفعتُ صوتي فيه:

– وهل يليق بستالين بطل الحرب العظمى أن يُدَرِّس مادّة الأحوال الجوية؟!... من تظنّون أنفسكم حتى تقرّروا مصيري كما تشاؤون؟!

أوعز سدهارثا إلى الملائكة بالتحرّك، فقلت له متوسّلًا:

– مهلًا... لي مطلب أخير.

أوقفهم سدهارثا بإشارة منه، وسألني:

– ما هو؟

قلت مستجمعًا جرأتي:

– قبل أن أذهب إلى الجحيم، أودّ أن أُقابل الرفيق الأعلى شخصيًّا.

هزّ سدهارثا رأسه أسفًا:

– يا لك من أعمى متبلّد المشاعر... لقد كان في صحبتك طيلة الوقت!

اقتادوني إلى النار، ولمّا وصلتُ إلى الدرك الأسفل، رآني الملاك الموكل تعذيبي فنادى اسمي، لم يكن نداءً بشريًّا بل صرخة مزلزلة صعقتني، فاستعدتُ وعيي وميّزتُ الوجوه الكثيرة التي أحاطتْ بي، وببطء أدركتُ أنّني في حجرة نومي ممدّدًا على سريري؛ ثم سمعتُ

بوضوح الصرخة الثانية التي تنادي اسمي، فلمّا أبصرته، شعرت بفزعٍ عظيم، ورفعت يدي محاولًا الإشارة إليه ليُقبَض عليه أو يُردى قتيلًا، لكنّ نظرته المخيفة الأشدّ قتلًا من الأسلحة كلّها لم تتح لي الوقت لفعل شيء.

Notez [1]: الجيل الثاني من شبكة النت التي ستكون متصلة مباشرة بجسم الإنسان.

[2] مادّة صمغيّة لزجة تخرج من لحاء بعض الأشجار.

فرانكو يلقى مصرعه

سمعت «الشخصية المهمّة» عن كتاب تتناقل ذكره الأفواه، ألّفهُ مواطن إسباني، فحصل عليه وقرأه. ثم قال في نفسه: «ويلٌ للعالم إن لم يكن للدون كيخوتي مكان فيه!». ومن تلك الكلمة بدأ كلّ شيء.

* * *

لطالما عُرف خوان كاليخونتي بأنّه شاب رقيق الطباع، الابتسامة لا تفارق ثغره، كمولودٍ ما فتئ يرضع، وإذا رأيته أول مرّة في حياتك فستظنُ أنّه لا يفيد في شيء.

العارفون بواطن الأمور يتحدّثون عن علاقة وفاء نادرة المثيل تربطه بزوجته، فهو لا يُخالف لها أمرًا، ويُطيعها في كلّ صغيرة وكبيرة. النساء يملن إلى الرأي القائل أنّه يعشقها إلى درجة العبادة، والرجال يهزأون منه لأنّه يخاف منها أكثر من ربّه!

في ذلك الأحد الذي سقط سهوًا من ذاكرة الشياطين، أوصل زوجته التي تكبره عشر سنوات إلى منزل خالها المُتبجّح بسعادته وغناه، ثم كان عليه أن يتسكّع من مقهى إلى مقهى ريثما يأزف الوقت.

لكنّ الوساوس جعلته لا يعرف كيف يُفسّر جملة زوجته المبهمة: «تعال في الليل». فهل كانت تقصد أوله أم آخره؟ فكّر في أنّه إذا ذهب مبكّرًا، فإنّ عليه أن يعتذر بأدب جمّ عن العشاء ويشبك ذراعه بذراع

عقيلته وينصرفا مرفوعي الرأسين، مُخلّفًا صورة حسنة عن كبرياء آل كاليخونتي. لكن، ماذا لو غُلب على أمره واضطرّ إلى أن يمكث لتناول العشاء؟ حينئذٍ، سيبدو في مظهر الطفيلي الذي يتحجّج بزوجته لإشباع نهمه إلى أطباق الطعام الفاخرة! ثم ثبت رأيه على أن يذهب لأخذ زوجته بعد انقضاء موعد الوجبة ومغادرة آخر فرد منهم المائدة.

الخنفساء الأفريقية التي دحرجت الشمس وغيّبتها عن ناظريه، جعلته يقلق ويطرح على نفسه هذا السؤال الفلسفي العويص: «ولكن، متى سوف تنزل الآلهة من عليائها لتناول طعام العشاء؟». لم يكن يعرف، فوقع في حيرة من أمره مجدّدًا. كان يخشى توبيخ حليلته أو ما هو أدهى، فعزم على أن يكلّمها هاتفيًّا في منزل الخال.

دخل محلّ اتصالات وأغلق باب الكابينة على نفسه، وضرب الرقم غيبًا من الذاكرة. أسماك الزينة الملوّنة في الحوض الزجاجي شخصتْ إليه بأبصارها غير مُصدّقة، كأنّها أحسّتْ بالحدث الذي لم تكن له سابقة:

– آلو... هكذا أجابه صوت أجشّ مُجلجل كأنّما يُدوّي في قاعة فارغة.

ابتهج خوان كاليخونتي وحسبه صوت سانشو خال زوجته الواسع الثراء والنفوذ، وقال:

– آلو خالي... كيف حالك؟

– خالك! من أنت؟

– أ... أ... أنا خوان.

– خوان من؟

– خوان كاليخونتي سيدي.

– أعرفك... لقد كلّمني الناس عنك وقرأت... (صمت) ألست أنت الذي تخاف زوجتك أكثر ممّا تخافني؟!

شعر خوان كاليخونتي بغصّة في حلقه لأنّ كرامته قد حُطّ من قدرها:

– أ... أ... يعني أنت لست خالي... كذا؟

ضحك الصوت الآتي من الأقاصي بوقار وأقفل الخطّ.

* * *

ولأنّ خوان كاليخونتي لا يُخفي شيئًا عن روسينانتي، فقد أخبرها بما حصل معه في كابينة الهاتف. ولأنّ روسينانتي لا تُخفي شيئًا عن المجتمع، فقد روت لكلّ من التقته حادثة اتّصال بعلها بتلك الشخصية المهمّة.

وما هي إلّا أيّام معدودات حتى كان ذلك الرقم الذي حصل عليه خوان كاليخونتي مصادفة منتشرًا بين معظم سكان مدينة مدريد. لقد جرّب الملايين من الناس الاتّصال بذلك الرقم، مرّات لا تُحصى، يحدوهم الأمل بأن يتجاذبوا أطراف الحديث مع تلك الشخصية المهمّة، لكن لم ينجح واحد منهم في نيل الشرف الرفيع الذي يتطلّع إليه من أعماق قلبه، ألا وهو أن ترفع الشخصية المهمّة سماعة الهاتف لتردّ على أحد اتّصالاته اللجوج.

ومن سخرية الأقدار أنّ خوان كاليخونتي أضحى هو أيضًا شخصيّة مهمّة! يحرص الكثيرون والكثيرات على الاتّصال به لسماع صوته وأخذ الرقم منه شخصيًّا.

ساور الشكّ في صحّة الرقم عددًا من الملاحدة، الذين أعلنوا أنّ الرقم الذي وزّعه خوان كاليخونتي على العامّة، إنّما أتى به من كهف خياله المُجنّح. الصحافيّون الموالون للسلطة اتّهموه بالكذب وتضليل الشعب، وأنّه عميل لتنظيم سرّي يهدف إلى إثارة البلبلة وزعزعة استقرار إسبانيا. الأكثر خبثًا قالوا أنّ خوان كاليخونتي دجّال محتال، اتفق مع شركة الاتّصالات الوطنية على فبركة تلك المحادثة الوهميّة، وزعموا أنّ له حصّة من الأرباح الخيالية التي تدفّقت إلى خزائن الشركة... وما زاد تأجيج نظرية المؤامرة، أنّ شركة الاتّصالات الوطنية لزمت الصمت، ولم تنشر أيّ بيان يوضّح الهوية الحقيقيّة لصاحب ذلك الرقم المثير للجدل.

الغريب في الأمر أنّ السواد الأعظم من المواطنين الإسبان صدّق رواية خوان كاليخونتي، وأيقن بإيمان راسخ أنّ الرقم يخصّ من دون شكّ

«الشخصية المهمّة».

دائرة صغيرة من الأكاديميّين سفّهتْ الحكاية برمّتها، ووزّعتْ منشورًا مضمونه أنّ «الشخصية المهمّة» غير موجودة أصلًا، وأنّ الذي أوجدها في ضمائر البشر ليس سوى شعورهم الحادّ بالعار من تفاهتهم وضآلتهم، ورغبتهم في إضفاء الأهمّيّة على وجودهم الفاني بربط أنفسهم بشيء أكبر منهم.

* * *

الجنرال العتيد فرانكو جُنّ جنونه هو الآخر، وانتابته حُمّى «الشخصية المهمّة»، فجرّب الاتّصال بالرقم مئات المرّات، لكنّه لم يُوفّق. كان «الكاوديو» مُحرجًا بسبب فشله الشخصي، رغم أنّ هذه الفضيحة لم يعلم بها سوى حاشيته المُقرّبة. لقد ضايقه أن يفشل، وهو الذي لم تتعثّر قدمه بهذا الشيء المسمّى «الفشل» منذ عقود عدّة. ها هو يذوق طعمه الذي كان قد نسيه! ثم تحوّل الشعور بالحرج والضيق من دون سابق إنذار نقمةً وامتلأت نفسه بالحقد الممزوج بالحسد، فأوعز باعتقال بائع الحنوط والأكفان خوان كاليخونتي في أحد مقارّ الاستخبارات.

تحت جنح الظلام، تحرّك موكب الجنرال فرانكو إلى ضاحية نائية شمال مدريد. هناك، طلب أن يُحضروا إليه خوان كاليخونتي شريطة أن يُلبسوه ملابس تستر عورته فحسب! حين رآه ماثلًا أمامه، تأمّله بازدراء ولم يفهم لماذا قد تخدم الأقدار شخصًا أبله مثله. أشار إلى جهاز الهاتف على المكتب، وأمر خوان كاليخونتي بلهجة عسكرية صلفة أن يجلس ويتّصل بالشخصية المهمّة.

انصاع خوان كاليخونتي للأمر وجلس إلى المكتب مُحدودب الظهر، ضرب الرقم وانتظر، لكنّ هاتف الطرف الآخر كان يرنّ ولا أحد يرفع السمّاعة. كرّر الاتّصال ثلاث مرّات، ثم أعلن ببراءة الأطفال ألّا فائدة من الاستمرار في ضرب الرقم لأنّ صاحبه لن يستجيب.

راح الجنرال فرانكو يلفّ ويدور حول الشابّ النحيل الناتئ العظام، الذي اصطاده المخبرون في الضحى، مُركّزًا عليه أنظاره الجائعة لمجد لا حدود له. انحنى على خوان كاليخونتي من الخلف، وزعق في أذنه بِغِلٍّ:

– ولكن، لماذا لا يردّ على اتصالنا؟ لماذا لا يتنازل ويرفع السمّاعة؟ ألا يستوعب من نحن؟ هاه؟

تهيّب خوان كاليخونتي مجادلته، وتحت إلحاح نظرة الجنرال الجاحظة التي تبرق بالوعيد، تكلّم محاولًا التغلّب على ثقل لسانه الذي كاد يشلّه الرعب:

– لأنّه يعرف أنّ الذي يتّصل به هو حضرتكم لا أنا.

حكّ الجنرال فرانكو وجنته، كأنّه يقدح نارًا تتلظّى منذ مدّة في روحه:

– أنا أكثر عظمة منك أيّها الخامل الرعديد!... أنا بطل إسبانيا الأوحد على مرّ العصور... أنا رئيس الدولة وزعيم حزب الفلانخي العظيم، فلماذا يتكبّر ولا يردّ عليّ؟!

قلب خوان كاليخونتي شفته السفلى، وبعد تفكير أعطى جوابه القصير الذي فجّر الموقف:

– أظنّه يحبّ الأسماك الصغيرة. أمّا أنت، فلا أظنّه يحبّك!

شعر الكاوديو بصعقة ألم فظيعة في خصيته الوحيدة، وتذكّر عقمه الذي لا بُرء منه، فرفع الهاتف الثقيل الوزن وضرب به رأس خوان كاليخونتي الذي تهاوى على البلاط غارقًا في دمائه النازفة من ناصيته. سحبه أحد الجلّادين إلى وسط الحجرة، فانقضّ عليه الجنرال وبرك على صدره، وصفعه عشرات الصفعات بخفّة أثارت إعجاب من حوله، وحين انتهى من تنفيس غضبه، مدركًا أنّ ضحيته قد فقدت وعيها ولم تعد تشعر بشيء، نهض مترنّحًا وقد احمرّت كفّاه وهو يُكابد لكيلا يتقيّأ رئتيه. أمر أن تُرتّب لـخوان كاليخونتي محاكمة عسكرية بتهمة الخيانة العظمى، وأن يصدر في حقّه حكم بالإعدام حرقًا، ثم غادر ووجهه يرشح عرقًا غزيرًا برفقة حرّاسه المغاربة.

* * *

بناءً على مشورة مُنجِّم القصر، شرع الجنرال فرانكو في بناء برج للاتّصالات، وقرّر أن يؤجّل إعدام خوان كاليخونتي ليتزامن مع حفل الافتتاح.

بعد ثلاث سنين، في الليلة الموعودة منذ فجر التاريخ، اعتلى الجنرال فرانكو وكبار ضبّاطه قمّة البرج الشبيهة بحوض أسماك زجاجي. استقبلتهم حسناوات يظنّ المرء أنهنّ قد تنزّلن من الجنّة خصّيصًا لإضفاء جوّ من المرح على الحفلة، وقدّمن المشروبات الروحية، وأطباق النَّقل. التصق هذا اللفيف من الذكور المتباهين الفخورين بالحوائط الزجاجية السميكة كالذباب، وانبهر بمشهد مدينة مدريد الممتدّة على مدّ النظر، والتي، ورغم ذلك الامتداد، تشبه طائرًا في قفص.

بعد دقائق لا أكثر ملّوا المنظر، وانشغلوا بالشرب والأكل ومغازلة النادلات الممشوقات القوام. لم ينتبهوا إلى الغيوم السوداء التي عبرت السماء حثيثًا واستقرّت فوق البرج، وأرسلتْ إشارات تنبئ بعاصفة تتجشّأ كراهية. ظهرت تقطيبة مريعة على وجه الكاوديو حين لاح البرق يكاد يُعمي الأبصار من قوّة وميضه، والرعد كان له زئير الأسود.

مع تساقط أولى حبّات البرد، أخذت البنات يصرخن وينتحبن، فأذن لهنّ الجنرال بمبارحة المكان على مضض. أخذ فخامته المنظار وراح يبحث عن الموقع المُعدّ لإحراق خوان كاليخونتي فلم يتمكّن من رؤيته، لقد حجبته زخّات المطر الغزير، وطَمستْ الثكنة العسكرية أطنان من الحبر الأسود.

ورغم أنّ الوقت لم يكن يبدو مناسبًا لإجراء أيّ اتّصال هاتفي بسبب عواء الذئاب في الأعالي، فإن الجنرال بدا أكثر تصميمًا على تنفيذ خطّته، فاتّجه صوب الطاولة المصنوعة من القصب، حيث وُضع الهاتف المصبوب من الذهب، وطلب الرقم وهو يقف في شموخ واثقًا في نفسه.

نهر مانثاناريس غيّر فجأة مجراه، من دون أن يشرح لأحد أسبابه، وراح يضرب بقسوة حتى نفذ الماء إلى أعماق التربة أسفل البرج. انقطع التيار

الكهربائي وتعطّلت المصاعد وحلّ الظلام الدامس. ارتجف الضبّاط ودبّ الهلع في أفئدتهم حين أحسّوا بميلان البرج ميلانًا خفيفًا وسمعوا عولًا مفزعًا يشبه ضربات فأس الحطّاب. تراجعوا إلى الوسط، وكلّ واحد منهم يصطدم بالآخر كجيش مهزوم يلوذ بالفرار. تراصّوا حول القائد الذي ظلّ الوحيد من بينهم رابط الجأش.

على حين غرّة، رفع الطرف الآخر السمّاعة، فبهت الجنرال فرانكو، ربّما لأنّ نبوءة المنجّم قد تحقّقت! لكنّه لم يسمع أيّ صوت يصدر من هناك. فقد الكاوديو هدوءه الذي حافظ عليه بصعوبة منذ بدء العاصفة الرعدية وزعق بكلّ قواه:

– ألو... ألو... ألو... توقّدت عيناه كجمرتين تشعّان لهب الضغينة، وخرجت من بين شفتيه أبذأ شتيمة.

يشاع أنّ الجنرال فرانكو تبادل بضع كلمات مع «الشخصية المهمّة» ثم راح البرج يهوي مُصدرًا صريرًا كشجرة شاهقة قطعت من جذعها.

لم يتمكّن أحد من معرفة ولا حتى تخمين الكلمات القليلة التي قيلت في الحوار القصير الذي دار بينهما، إذ لم ينجُ الجنرال فرانكو ولا أركان نظامه، بل عُثر عند شروق الشمس على جثثهم متناثرة على ضفاف النهر وهي مُزرقّة ومنتفخة. أمّا برج الاتّصالات، فقد ابتلعه التنّين مانثاناريس ولم يُعثر عليه بعد ذلك قطّ.

في ظهيرة اليوم نفسه، أُطلق سراح خوان كاليخونتي فتبادر إلى ذهنه – لجهله ما حصل للجنرال فرانكو وطغمته – أنّ الشخصية المهمّة قد أشفقت عليه أخيرًا وأجرت اتّصالًا هاتفيًّا لطلب العفو عنه.

إفطار بوكاسا الرئاسي

أفطر السيد الفيلد مارشال جان بيدل بوكاسا في حديقة القصر مع صديقه لاعب كرة القدم المشهور الذي يلعب في موقع رأس حربة هجوم منتخب أفريقيا الوسطى.

الإفطار الذي له رائحة شهيّة للغاية، كان مكوّنًا من خِصي عشرة من معارضيه السياسيين مقليّة بالزيت ومبهّرة بجوزة الطيب ومعصور عليها الليمون، إضافة إلى لحم الضأن المشوي بالفحم والمُطيّب بالفلفل الأحمر، وأطباق متنوعة من البسكويت والعسل والمكسّرات وقارورتي نبيذ فرنسي.

بعد أن شبِعا، سأل فخامته الضيف عن رأيه في الإفطار الرئاسي، فأجابه الأخير وعلى ثغره ابتسامة خفيفة:

– عجيب!

ارتفع الحاجب الأيسر للفيلد مارشال، وقال:

– لا... ليس عجيبًا... هذا يُسمّى الإفطار الفرنسي... هل تعلم أنّ الإمبراطور نابليون بونابرت كان يفطر يوميًّا مثل هذا الإفطار؟

ضحك نجم المنتخب الوطني، وقال:

– نعم، بكلّ تأكيد... ويعلم الربّ كم أكل نابليون من خِصي المصريين!

انفرجتْ أسارير بوكاسا، وأخذ يضحك هو الآخر. كان مسرورًا ومستمتعًا بخفّة ظلّ صديقه.

أتت سكرتيرة مكتبه وهي تتمايل، وتحمل أكداسًا من الورق، انحنتْ وهي تضعها أمامه، وظلّت هنيهة تتلكّأ في ترتيب الإضبارات، فقرصها وأمرها أن تنصرف.

راح فخامته يُخلّلُ أسنانه من بقايا الطعام، بعود مسنون، وقال:

– خمّن ما هذا.

عبّ النجم الكروي شرابه، ومدّ ذراعه إلى قارورة النبيذ، وقد همّ أن يسكب، فقال:

– الأخبار الواردة من وكالات الأنباء الدولية.

مال فخامته إلى جانبه الأيسر وأطلق ريحًا، وقال:

– حالة العالم لا تعنيني... (تنحنح)، هذه التقارير اليومية المرفوعة من الأجهزة الأمنية السبعة التي تحصي كلّ كلمة وكلّ حركة يد أو قدم أو حتى رمشة عين في جمهوريتي.

صفّر نجم المنتخب الوطني صفّارة خافتة، وكانت هذه لازمته للتعبير عن مدى إعجابه وتقديره لـ«الشيء» الذي أثار انفعاله.

راح سيادته يستعرضها، ورأسه متكّئ على راحة يده الشمال. ثم رمى إضبارة منها إلى صديقه الذي يُكنّ له معزّة أكثر من أيّ شخص آخر في الوجود، وقال:

– انظر العمل المملّ الذي أقوم به كلّ صباح... يا الله لماذا حكمت عليّ أن أكون رئيسًا للجمهورية؟!

أمسك النجم الكروي الإضبارة، وفورًا أحسّ بوخزة من دبوس ناشز ثقب جلده. راقب رأس إصبعه التي تكوّرتْ فيها نقطة دم، فصعدتْ من جوفه مشاعر حزن أقرب ما تكون إلى الندم.

سأل النجم الكروي فخامته لو لم يكن رئيسًا للجمهورية فماذا يتمنّى أن يكون، ردّ عليه أنّه يتمنّى لو يكون لاعب كرة قدم بارع مثله. وجّه سعادته السؤال نفسه إلى صديقه، فردّ الأخير بكلّ صراحة أنّه يتمنّى لو يكون رئيسًا للجمهورية! اعتدل بوكاسا في جلسته، وقال في جديّة ووقار:

– لهذا أنا أميل إليك وأنت تميل إليّ... لأنّ كلّ واحد منّا يتمنّى في أعماق قلبه لو يكون مكان الآخر.

سكب فخامته النبيذ في قدحه وقدح صديقه، وشرد، وهو يعاقره بصمت. بعد مدّة يسيرة تكلّم ونظرته مركّزة على قعر كأسه الفارغة، وقال:

– ومع هذا أنت أفضل منّي... يمكن أيّ شخص أن يكون رئيسًا للجمهورية، ولكن ليس في إمكان أيّ شخص أن يكون لاعبًا ممتازًا في كرة القدم.

عقّب النجم الكروي ساخرًا من نفسه:

– والدليل على ذلك أنّ منتخبنا الوطني لم يفز في أيّ مباراة منذ تاريخ انضمامي إليه، والهدف الوحيد الذي سجّلته كان في مرمانا!

قال فخامته وهو يشير إلى مُحدّثه:

– لا تقلّل من شأنك... أنا على الأقلّ أعرف قيمتك ومقدار ما لديك من مهارات. شعر لاعب كرة القدم بضيق غير مفهوم من نفسه، فغيّر مجرى الحديث:

– هذه أول مرّة أعرف أنّ لدينا جهاز استخبارات الاقتصاد والمال.

تعاطى فخامته «القورو» لينشط، وقال:

– مهمّة هذا الجهاز التجسّس على ثروات المواطنين... لقد اخترعته إذ لم يسبقني إليه أحد... أنا الرئيس الوحيد في العالم الذي يعرف بدقّة ما في جيب كلّ مواطن.

راحا يقرآن التقارير بجدّيّة تامّة، وبعد قليل فرقعت ضحكات النجم الكروي، فرفع الرئيس رأسه والفضول يجتاح وجهه. قال النجم الكروي:

– استمع إلى هذا البلاغ... عجوز عمياء يناهز عمرها المئة سنة ظهر لها قرنان في رأسها ونبتت أسنانها من جديد، تمكّنت من أن تبيض وتنافس الدجاج... هاها. رفرف حاجبا سعادته إلى منتصف جبينه، قائلًا:

– غير معقول!

ناوله النجم الكروي الإضبارة:

– هاك... اقرأ بنفسك. مرّ المارشال بنظره على السطور مرورًا سريعًا، ثم أزاح الإضبارة جانبًا وتنهّد، قائلًا:

– القرويون الملاعين يستغفلون رجالي... من الواضح أنّهم يخبّئون دجاجاتهم البيّاضة في مكان بعيد من العيون.

أعطى المارشال صديقه إضبارة ثانية، وانهمكا في القراءة بوقار. وما كادت تمرّ سوى دقيقة واحدة حتى دوّت القهقهات الطنانة للنجم الكروي. رفع بوكاسا رأسه وحدج صديقه بنظرة ملؤها العتب واللوم! راح نجم المنتخب يقرأ:

– الساحرة دغونغي حوّلت عشرين شرطيًّا حميرًا، وعندما تمكّنت الأجهزة الأمنية من إلقاء القبض عليها حوّلت مدير أمن المنطقة بغلًا... هاها. نكّس بوكاسا رأسه، محرجًا، وقال:

– ليس هناك أيّ سحر في الموضوع... كلّ ما في الأمر أنّ تلك المشعوذة رأتهم على حقيقتهم... لأنّهم أصلًا مجموعة من الحمير والبغال.

قال النجم الكروي، وهو يحاول الكفّ عن الكركرة:

– الحقيقة أنا أعرف هذه المرأة... إنّها ساحرة رهيبة، وهي قادرة على أن تمسخهم فعلًا... هاها.

قال المارشال مشكّكًا:

– هل تعرفها حقًّا؟!

أجاب نجم المنتخب، وعيناه تبرقان:

– نعم... بفضلها، صرتُ ما أنا عليه اليوم... في بداية حياتي، كنت أعمل حمّالًا عند مقاول بناء وأمارس كرة القدم كهواية، فسمعتُ عنها وقلت في نفسي ما المانع في أن تتنبّأ لي بمستقبلي؟ ذهبتُ إليها وتنبّأتْ لي بأنّني سأكون أفضل لاعب كرة قدم في أفريقيا الوسطى... ومنذ ذلك الحين، قرّرتُ ترك العمل مع المقاول وطرق أبواب الأندية... وبالفعل، صدقت نبوءتها ووجدتُ طريقي في عالم الكرة مفروشًا بالذهب.

حدّق فيه المارشال بنظرة تشي بالحسد، وقال:

– لا بد من أن أرى هذه المرأة... سوف أرسل في طلبها.

قال النجم الكروي:

– مهلًا سيّدي الرئيس... هناك أمر ينبغي أن تعرفه قبل أن تطلبها.

قال المارشال، وهو يحكّ البثور التي لا تكفّ عن الظهور في جذور لحيته:

– ما هو؟

قال النجم الكروي:

– لكلّ واحد من هؤلاء السحرة طريقته الخاصّة في التنبّؤ... وبالنسبة إلى دغونغي، فإنّ طريقتها في التنبّؤ هي أن تفحص ذلك الشيء ثم تُنبئ الشخص بمستقبله.

ابتسم المارشال ابتسامة عريضة جدًّا، وقال:

– هذه طريقتي المفضّلة في التنبّؤ! عمومًا لديك الحقّ في التحفّظ عن طلب إحضارها علنًا... البلد يعجّ باستخبارات الدول المعادية التي تبحث عن أيّ فرصة لتشهّر بي في وسائل الإعلام... لكن، أعتقد أنّه يمكنك أن تأتي بها إلى هنا في تكتّم من دون أن يعلم أحد.

صافح نجم المنتخب الوطني رئيسه وشدّ على يده، وكانت هذه إشارة إلى أنّ كلّ واحد منهما يثق في الآخر.

* * *

أنزل المارشال بوكاسا بنطلونه، وبدأت العجوز الدرداء ممارسة طقوسها السحرية. في جواره، وقف صديقه نجم المنتخب الوطني وهو يريه صورًا. بعد أن أنهت العجوز ذات الشعر الكثيف الأشعث قراءة «ذلك الشيء» تنبّأت له بأنّه سيصير إمبراطورًا! سُرّ المارشال بوكاسا بهذه النبوءة سرورًا عظيمًا وعدّها قدرًا محتومًا.

بعد عبوره ذلك الطقس السحري، أخذت الأمور تتغيّر بسرعة... صنع لنفسه تاجًا مرصّعًا بالماس فاقت تكلفته الخمسة ملايين دولار، وأقام

حفلًا باذخًا – تسبّب لاحقًا في إفلاس خزينة البلاد – كي يعلن تحوّل أفريقيا الوسطى من جمهورية إلى إمبراطورية.

لم يكن «السيد الإمبراطور المقدّس»، وهو لقبه الجديد، يدرك أنّ الساحرة الماكرة «دغونغي» قد حوّلته الجحشَ الأكثر مدعاة للسخرية والتندّر في أفريقيا.

بينوشيه يتعقّب البلابل

أطلّ النقيب جنرال أوغسطو بينوشيه من النافذة، وراح يستمع للنشيد الوطني التشيلي الذي تعزفه فرقة حرس الشرف في ساحة القصر الرئاسي «لامونيدا». كان يقف، مؤدّيًا التحيّة بالبزّة العسكرية ومتّشحًا بالوشاح الرئاسي رمز الجمهورية، شامخًا، وعلى فمه ابتسامة المنتصر.

حين أنهت الفرقة العزف، عاد إلى الداخل وأخذ يراقب البلابل الحبيسة في قفص واسع فيه كهوف ونوافير وأشجار بلاستيكية. خطرت في باله والدة سلفه، لقد أزعجته الملاحظة التي أدلى بها صديقه المُقرّب عالم الميثولوجيا أ.س. مارتينيث عن وجود تشابه في الملامح بين السيدة قوسنس لورا أوريبي والدة الرئيس السابق سلفادور أليندي والإله يغوث الذي كان العرب القدماء يعبدونه.

كان ينقر بأنامله حديد القفص ويشرئبّ بعنقه، سخر في نفسه من الملاحظة وتمتم «لو كان صحيحًا لأمكنها أن تُغيث ابنها».

اقترب منه سكرتيره الخاصّ، تكلم وهو يطقطق أصابعه:

– القهوة جاهزة سيدي.

رمقه كأنّه يودّ أن يؤنّبه، ثم غيّر رأيه ومضى رأسًا إلى مكتبه، حيث كان ينتظره زائر أُحضِرَ سرًّا إلى القصر.

فرش فيكتور جلد الحصان وسطَ الحجرة، وقعد يغلي القهوة في هدوء على موقد الفحم. كان شيخًا في السبعين صلبًا كجذع شجرة، وجهه

محفور أخاديد عميقة تبدأ كلّها من نقطة أعلى قصبة أنفه. كانت ملامحه «المابوتشية» تعكس مهابة وجلالًا وشبهًا خفيًّا بالأرض التشيليّة نفسها. لم يقف حين أتى سيد القصر، واكتفى بالتحديق فيه في فضول. طلب فخامته من سكرتيره الخاصّ أن يُقرّب كرسيًّا ليجلس عليه. نفّذ السكرتير الخاصّ الأمر، وقبل أن يقعد، سارع إلى نزع الوشاح الرئاسي – كعادته كلّ يوم – فأراد أن ينهاه لكنّ شيئًا ما أوهى قواه. تابع الهندي الأحمر بعينين ضيقتين رحلة الوشاح الرئاسي من صدر الجنرال إلى فاترينة زجاجية تضمّ عددًا من الأوسمة.

تناول سيادته فنجان القهوة من يد المابوتشي، وارتشفه حارًّا ومرًّا، ثم أعاده. فيكتور الذي انتفخت شفته السفلى بالهواء كأنه ضفدع، راح يُدير الفنجان في دوائر في اتّجاه عقارب الساعة، لكي تتوزّع حبيبات القهوة بالتساوي على جدرانه، ثم قلبه على الطبق ومقبضه في اتّجاه الجنرال.

بعد مرور وقت كافٍ لتجفّ القهوة، رفع «المابوتشي» الفنجان، وأخذ يدرس في تركيز فائق الأشكال الغريبة التي ارتسمت على جدرانه، غير مبالٍ بالجنرال الذي كان ينظر إلى ساعته وينفخ متبرّمًا!

بدا أنّ رأس الشيخ المابوتشي يزداد وزنه ويصير أثقل كلّما غاص في لطخة لامعة تبدو على هيئة حشد من الرؤوس... بدأ يقرأ مقبض الفنجان، وهو يديره عكس عقارب الساعة:

– سنوات عظيمة تنتظرك... ترتقي إلى المجد على جماجم أعدائك... المرأة ذات الألف يد ويد سوف تنجيك من الشدائد... أنت لن تُنسى... التاريخ يطوف حولك... سيخذلونك... لكنّك إلى الموت تهرب قبل أن يفرحوا بخنقك.

كان السكرتير الخاصّ يدوّن كلمات «المُبصّر» ونظّارته تكاد تسقط من شدّة عجلته في الكتابة.

وضع فيكتور فنجان القهوة على الطبق بحنان كأنّه يوسّد رضيعًا في فراشه.

تبادرت إلى ذهن الجنرال النهاية العنيفة لسلفه سلفادور أليندي الذي لقي مصرعه رميًا بالرصاص، فتوجّس شرًّا، وقال للشيخ المابوتشي:

– أريد تفاصيل أكثر عن أولئك الذين سيخذلونني... من هم؟ ومتى وكيف؟

أشار سيادته إلى الفنجان المقلوب بإلحاح. أسند الأشيب المابوتشي ذقنه إلى راحته، وحدّق في الجنرال بنظرة خارقة للجلد تشبه نظرة البومة، وأجاب:

– دمارك يا سيد العالم سيكون على أيدي رجال بلابلهم طويلة.

هبّ بينوشيه واقفًا، وفتح فمه كتمساح يُهدّد بابتلاع المُبصّر:

– كم بالضبط؟

ألصق الشيخ الجليل بنانه بأذنه، وقال:

– ماذا قلت؟

أعاد الجنرال طرح سؤاله بنبرة غاضبة متهيّجة:

– كم طول بلابلهم بالضبط؟

في سرعة بداهة، أجابه المبصّر:

– لا أعلم... ربّما بطول التشيلي!

وراح يضحك، وكركراته الفاضحة تتردّد أصداؤها في أرجاء «سانتياغو».

* * *

في مساء اليوم نفسه، استُدعي البروفيسور أ. س. مارتينيث إلى قصر «لامونيدا».

في الاجتماع المغلق – الذي سيتقرّر في ضوئه مستقبل تشيلي – بادر الجنرال بينوشيه إلى طرح سؤاله من دون مقدّمات على البروفيسور:

– كم يبلغ أقصى طول طبيعي للبلبل؟

وضع حضرة البروفيسور نظّارته الطبّية المقعّرة على سطح المكتب الرئاسي الفخم، وأجاب وأهدابه ترفّ:

– أربعة عشر سنتيمترًا.

كان الجنرال يقبع خلف مكتبه منحنيًا أشبه ما يكون بالقنفذ، فقال:

– وأطول من ذلك؟

تريّث البروفيسور في الإجابة، محاولًا أن يُخمّن ما يدور في رأس الديكتاتور، ثم أجاب:

– غير طبيعي.

وقف الجنرال، وراح يتمشّى جيئة وذهابًا، ويداه معقودتان خلف ظهره، مفكّرًا بعمق. كان يرتدي بدلة رمادية أنيقة ويضع حول عنقه ربطة أرجوانية، وتفوح منه رائحة الحديد المُحمّى بالنار. منذ لقائه «فيكتور» حدثت له تغيّرات مأسوية، فخلال ساعات معدودة انتقل توتّره الشديد إلى جسمه، وبدأ يشعر بألم فظيع أسفل ظهره يعيق حركته، وبحشرجة في حلقه كأنّه مخنوق بلقمة يعجز عن لفظها أو ابتلاعها.

شعر بأنّ الصديريّة تعيقه عن التنفّس، لقد ضاقت عليه بسبب زيادة وزنه وإهماله ممارسة التمارين. كان الضوء في الحجرة قويًّا أكثر من اللازم، وشعر بحكّة في عينيه. أمور كثيرة كانت تضايقه، وتثير الحنق في نفسه.

أتى نادل بقارورة ويسكي «السكوتش» وطبق «النّقل» وسكب للجنرال ونديمه. عبّ بينوشيه كأسه وتفّاحة آدم في حلقه تتأرجح صعودًا ونزولًا، ثم أفضى لصديقه بالمعلومة الخطيرة التي حصل عليها من قارئ الفنجان الهرم.

راح البروفيسور يلتهم حبّات من الفستق واللوز ويعبّ شرابه، محاولًا الإنصات رغم الطقطقة الصادرة من فمه، وقع بصره على آثار خفيفة جدًّا لمسحوق أبيض عالق في كمّ معطف الزعيم، وتساءل في نفسه عمّا إذا كان سيادته يتعاطى المخدّرات...

– ما رأيك أيّها العلّامة؟

– قارئ الفنجان هذا عبقري بالفطرة... وكلامه يتطابق مع الأبحاث العلمية التي أجريتها على المجرمين والسفّاحين والثوريين المخبولين،

حيث وجدتُ أنّ القاسم المشترك بينهم جميعًا هو أنّ بلابلهم أطول من المعدّل الطبيعي... وهذا البحث أجريته على السجناء ونشرته في دورية علمية مُحكّمة تصدر من جامعة هارفارد الأميركية.

– لنضع إذًا خطّة مدروسة للقضاء عليهم، قال وهو يحكّ مؤخّرته.

– هل تعلم كم يبلغ طول بلبل الهالك أليندي؟

– لا.

يرمق البروفيسور بنظرة فضولية، ويقول:

– بحسب أقوال متطابقة من العاهرات اللواتي ضاجعهنّ أليندي، فإن طول بلبله تقريبًا ثمانية عشر سنتيمترًا، قال وقد احمرّت أُذناه.

– هذا يؤكّد ما قاله المُبصّر... ما المانع لو جنّدنا أولئك العاهرات لتعقّب الشيوعيين وأشباههم من مدّعي الشرف والفضيلة والأخلاق الرفيعة؟ قال وهو يمطّ فمه إلى الشمال منزعجًا من المعلومة.

– فكرة حسنة، ستكون دولتنا أول دولة في العالم تتجسّس على البلابل!

ضحك بينوشيه، وصفّق كفّه بكفّ البروفيسور. تابعا تبادل الأنخاب والقفشات الساخرة من كلّ من يعنّ لهم الهزء منه، ونال الشاعر بابلو نيرودا نصيبًا لا بأس به حين تناولا سيرته وقد تعتعهما السكر زاعمين أنّ بلبله كان مشقوقًا وغير قادر على الانتصاب إلّا بشقّ الأنفس، ولهذه المناسبة رقص بينوشيه، وراح يتخيّل نفسه يعزف على الغيتار.

خرج فخامة الرئيس من الاجتماع مبسوطاً منفرج الأسارير، وأصدر قانونًا سريًّا ينصّ على أنّ الحدّ الأعلى المسموح به لطول البلبل للمواطن التشيلي هو «14 سم»، ومن يتجاوز هذا الحدّ يُعدَم بتهمة الخيانة العظمى.

وفي غضون السنوات التالية، شهدت البلاد حملات وطنية لقياس بلابل المواطنين، وأُعطيتْ لهم بطاقات هويّة جديدة، فيها خانة مضافة تحمل وسم طائر البلبل وفي جانبها مقاس آلة الذكورة.

وبحسب شهود عيان، فإنّ الآلاف من الرجال التشيليين الذين أفاضت

عليهم الطبيعة من خيراتها لقوا مصرعهم رميًا بالرصاص بسبب ذلك القانون.

حرس سوهارتو الأفظاظ

استقبل الرئيس سوهارتو الوفد الإعلامي الفرنسي الذي وصل إلى إندونيسيا لإجراء مقابلة تلفزيونية مع فخامته.

حين أتى الدور على جان، مقدّم البرنامج، لمصافحة الرئيس، مشى مُفرّجًا بين ساقيه وكفّه الشمال أسفل ظهره، وتكلّم متظاهرًا بـ«الإعياء»، وهو يُنقّل نظره بين الرئيس ومترجمه:

– سيدي الرئيس، حرسك الخاصّ هؤلاء أفظاظ!

– ما بهم؟ قال وقد أمال رأسه إلى الأمام كأنّه يريد أن ينطحه.

– لقد فتّشوني ثلاث مرّات وفي خشونة تصل إلى حدّ التحرّش!

– خخخ! جميع وزرائي وقادة جيشي يتعرّضون لهذا الإجراء يوميًّا، ولم أسمع أحدًا منهم يشتكي، قال وهو يشخر ساخرًا منه.

– إذا كانت الترتيبات الأمنية مشدّدة هكذا، فإنّ أيّ وزير أو قائد عسكري يعمل تحت إمرتكم لن يمرّ عام إلّا وقد يصبح مثليًّا بسبب التفتيش الدائم في مناطقه الحسّاسة!

ضحك سوهارتو وأسرّها في نفسه.

جهّز الفرنسيون الكاميرات والميكروفونات ولمبات الإضاءة، وانتظروا ريثما يفرغ فنّي الماكياج من تجهيز السيد الرئيس.

قبل إعطاء الإذن بإجراء المقابلة، دخل ساحر نحيل أحدب، سحنته لا تشبه سُحنة الجاويين، في رأسه فجوتان كبيرتان فيهما عينان صغيرتان

مكحّلتان، ورائحته تنثر شذى الحبق والشذاب. قام بالتعزيم، مستعينًا بالبخور لتحصين سيد الأمّة من الأرواح الشريرة.

أكل فخامته طبقًا عامرًا من الكعك التقليدي «لابيس ليفيت» الدسم المكوّن من 18 طبقة رقيقة، وبعد ذلك أعلن أنّه صار جاهزًا.

بعد جولة من الأسئلة الروتينية الباردة، دخل جان على خطّ الأسئلة الساخنة، وقال:

– فخامة الرئيس، هناك اتّهامات لسيادتكم بأنّكم تحكمون الشعب بالحديد والنار... ما ردّكم على هذه الاتّهامات؟

– هذه مبالغات... المعارضة كما تعرف تحبّ أن تشوّه سمعتي... الحقيقة أنّني أحكم هذا الشعب بقضيبي فحسب.

– هذه شجاعة أدبية من فخامتكم أن تعترفوا علنًا أمام وسائل الإعلام والعالم بسرّ بقائكم الطويل في السلطة! قال وهو يهزّ رأسه ولا يُخفي امتعاضه.

– سأفشي لك سرًّا آخر، أنا رُزقتُ أربع خصي، لذا أنا المؤّهل أكثر من غيري لحكم هذه البلاد! قال وهو يضحك ضحكة فاسقة وكرشه الكبير يتموّج.

– هل صحيح أنّ الـC.I.A صوّرت لك فيلمًا جنسيًّا مع إحدى عشيقاتك، وأنّها تبتزّك بهذا الفيلم؟

– أنا مثلك سمعت هذا الكلام، ولكن لم يصلني أيّ شيء رسميًّا... وأنا أنتهز فرصة هذا اللقاء التلفزيوني لأقول للأميركيين إذا كانت لديكم أفلام جنسيّة لابتزازي، فإنّها لن تخيفني... أنا فخور برجولتي، وعندما تُفرجون عنها فسوف أطلب بثّها على التلفزيون الحكومي الإندونيسي لكي يعرف الشعب أنّني فحل!

طفحتْ حناجر المخرج وأفراد فريقه بالضحكات بعدما سمعوا جواب فخامته من فم المترجم.

– المعارضة تتّهم الرئيس سوهارتو بتزوير نتائج الانتخابات... ما ردّكم على هذه المزاعم؟

– أودّ أن أردّ على سؤالك بسؤال... هل إله الكون ديمقراطي؟، قال وهو يُقوّس أصابعه كمخالب نسر ويُصوّبها إلى وجه مُحدّثه.

– آه... لا، أجاب جان وهو يفكّر.

– بالطبع لا... ولكن، لو افترضنا جدلًا أنّ هناك انتخابات... قل لي بصراحة يا جان، لمن كنت ستصوّت؟

– أنا شخصيًّا ربّما كنت سأقف في صفّ المعارضة، وأُصوّت لمصلحة الشيطان، قال وقد ظلّ يضحك حتى تورّدت وجنتاه.

– الديمقراطية أكبر أخطاء هذا العصر وأنتم السبب... هل تعلم لماذا إله الكون ليس ديمقراطيًّا؟... لأنّه لو سمح بإقامة انتخابات على طريقة الرجال البيض الحمقى، فإن الاحتمال الأرجح أن يفوز الشيطان ويُزيح الإله من عرشه! الإله ليس ديمقراطيًّا لأنّ حكمته لامتناهية، وكذلك أنا.

– سيدي الرئيس، يقال أنّك تستعين بالسحرة للقضاء على خصومك؟

– نعم، أجاب سوهارتو، وهو يُضيّقُ إحدى عينيه.

– هل يمكن أن نتوسّع أكثر في هذه النقطة؟

– لديّ لفيف من السحرة والساحرات رهن إشارتي، ومهمّتهم التنبّؤ بخصومي المستقبليين كي أردعهم قبل أن يشرعوا فعليًّا في أذيّتي.

– أفهم أنّك تعاقب الأبرياء لمجرّد الشكّ في أنّهم سيعارضونك مستقبلًا؟

– نعم.

– ولكن هذا فظيع!... لم يسبق في التاريخ كلّه أن عوقب مواطنون بالسجن والموت على جرائم لم يرتكبوها بعد!

– أتمنّى أن تقرأ التاريخ وتحاول الفهم حقًّا... أنا قرأت التاريخ بدقّة، واستنتجتُ أنّ تاريخ البشرية في إيجاز شديد هو أن تقتل عدوّك قبل أن تتاح له الفرصة ليصير عدوًّا لك.

– يبدو أنّنا نقرأ تاريخين مختلفين!

ردّ سوهارتو بغلظة:

– لا... هو التاريخ نفسه... لكنّك أعمى بسبب المثالية الزائفة التي

تربّيت عليها في الغرب... ماذا عن فرعون مصر الذي أعدم جميع المواليد اليهود في سنة معيّنة للتخلّص من عدوّه موسى؟ وكذلك الرومان الذين أعدموا المواليد خوفًا من ظهور المسيح؟... في العصور القديمة، كانوا يقتلون أعداءهم بعد خروجهم من بطون أمّهاتهم مباشرة، أمّا أنا فأكثر رحمة منهم، وأسمح لأعدائي بأن يعيشوا سنوات أكثر.

سأله جان بلهجة حذرة:

– هل أخبرك هؤلاء السحرة بنهايتك؟

– لقد أخبروني بها، وأنا ممتنّ لله على نهايتي الطيبة.

انتهت المقابلة على خير، وارتاح فريق العمل. صحبهم فخامته مودّعًا إلى بوّابة قصر «مرديكا»، ويده مشبوكة بيد جان تعبيرًا عن المعزّة التي يكنّها له، تأثّر جان بهذه اللفتة الكريمة، فقال:

– سيدي الرئيس، سعدنا باللقاء معك... بكلّ صدق، أجزم بأنّ هذه أهمّ مقابلة تلفزيونية أجريتها خلال مساري المهني على الإطلاق.

– ولعلّها الأخيرة!

ابتسم جان، ورجع إلى الخلف:

– لماذا؟ هل تنوي سجننا؟

– لا... لكنّ الساحر العربي الذي رأيتموه يباركني أخبرني بأنّ مكروهًا سيحدث لكم.

– هل أخبرك كيف بالضبط؟، قال وهو يقهقه ويطرق جمجمته بسبابته ثلاث مرّات.

– قال أنّه رأى كلّ شيء، دمعت عيناه، ورغم ذلك سوف أفعل ما في وسعي لتنجو يا جان.

شحب وجه جان، لأنّ اليقين في صوت الرئيس قد وصل أثره إلى نخاع عظامه.

في اليوم التالي، أراد جان خداع الرئيس، وبدلًا من التوجّه إلى المطار، ذهب مع أفراد طاقمه إلى الميناء وركبوا سفينة متّجهة إلى سنغافورة.

برّروا الأمر لمرافقيهم – وهم ضبّاط أمن بملابس مدنية – بأنّهم يرغبون

في التمتّع بمباهج واحدة من أجمل مدن آسيا قبل عودتهم إلى أوروبا. بالطبع، لم يكن يحقّ لأيّ مسؤول إندونيسي أن يعترض طريقهم.

وكما توقّع الساحر الحضرمي، سارت الأمور على ما يرام، ووصلوا بسلامة الله إلى الجنّة.

نظرية تشاوشيسكو في الحكم

تململ «العبقري الذي يعرف كلّ شيء» في فراشه، كأنّه في نزاع مروّع مع أعدائه، ونفثت حنجرته حشرجة مخنوقة وأنينًا يغمغم بالتذلّل والرجاء، ثم جفل مستيقظًا بسحنة وخيمة.

حقد على إلينا النائمة في جواره، لأنّها لم تشعر بعذابه، وتمنّى لو أنّه يخنقها حتى تتوقّف عن الشخير وعن التسلّط على حياته. جلس ورأسه مائل إلى كتفه اليسرى، وتساءل كيف يمكن لأبي الكوابيس أن يرى كابوسًا؟ أليس هو الجاثم على صدور الملايين وبيده الحياة والموت؟ فمن أين أتى هذا «الشيء» المتناهي في الحقارة ليُعكّر صفو نومه؟! نهض من السرير، وهو يشعر بألم فظيع في أضراسه التي طحن بعضُها بعضًا بضراوة طيلة الليل حتى كادت تتفتّت. أدخل بنانه بين ردفيه، ثم قرّبها من أنفه... مضى في تثاقل وجسدٍ منهك إلى المرحاض وحالته مثيرة للشفقة: حلقه جافّ، لسانه يابس كلوح خشبي، وشفتاه متورّمتان من التنميل، ونَفَسُه نتن كجيفة.

بال واقفًا مغمض العينين، وحين فتحهما ونظر في المرآة التي تغطّي الجدار كلّه شدّ قامته، وأغلق فمه، واتخذ الوقفة الرسمية المهيبة التي تعكس جبروته كربٍّ للشعب ورئيس للبلاد. الوميض المنبعث من الرخام جعله يتخيّل الكاميرات ترصد حركاته وتعبيرات وجهه، كأنّ مظاهر التبجيل تحفّ به من كلّ جانب، والجماهير المحتشدة تهتف بحياته فراح يردّ لها

التحية... ثم انفقأ حلم اليقظة بغتة حين أدرك أنّه لم يكن يُلوّح بيده، بل كان يؤرجح بلبله الرخو!

سمع وقع أقدام في الردهة، فشعر بالامتعاض، إذ لطالما نبّه موظّفات القصر إلى المشي على رؤوس أصابعهنّ. كانت عنده عقدة من هذا الصوت لم يُسرّ بها لأحد، لحرصه على كتمان نقاط ضعفه، وكان ذهنه لاإراديًّا يفرز، عند سماعه، صورًا سلبية تذكّره بمهنته الوضيعة في صباه، فينتابه مزاج سوداوي ويصير متكدّرًا.

راح يشتهي في خياله زوجة السفير البرازيلي، وهي مهمّة تشغيل روتينية يومية، تشبه استعراض حرس الشرف، ليتأكّد من جاهزية سلاحه الرجولي، طبعًا مع تغيير زوجة السفير كلّ مرة.

لم تنجح محاولاته في الإنعاظ فاستسلم على مضض، وقرّر بحسم أنّه ليس من حسن الطالع أن يأكل الفاصوليا في المنام.

استُدعي العرّاف إدمريسكو بمكالمة هاتفية، ونقلته طائرة مروحية من قريته المُعشّشة في إبط النهر جنوب البلاد إلى «قصر الربيع» في بوخارست، وهو لم يكمل حلاقة ذقنه، ولا عرف ما يُراد منه، باستثناء أنّه كان مخفورًا بعناصر من الشرطة السرّية السيكوريتاتي الخُرس.

حين مَثُلَ العرّاف أمام «المنار المضيء للإنسانية»، أدرك بفراسته الغجرية أنّ عبوس الوجه وراءه أزمة عميقة، وأنّه سيواجه أصعب امتحان في حياته.

كانت ساقا فخامته ملتويتين إلى الوراء لا منفرجتين على وسعهما كالعادة، ونظرته فقدت ثباتها وقوّتها، وبدت تائهة تدور من جهة إلى أخرى، كأنّما يحمل هاتين المقلتين شرطي أعزل محاصر بين حشود بشرية غاضبة.

ببطء، روى «دانوب الفكر» حلمه وهو يتأتئ وصدغاه يرشحان عرقًا. تجرّأ العرّاف على الضحك ليُهوّن الأمر، وأوّل الحلم بأنّ جنابه سيجني ثروة طائلة. اغتاظ فخامته من استهتار العرّاف، وانتفخ عرق الغضب في

جبهته. وفي لحظة، اكتست بشرته الثلجية احمرارًا ناريًّا، وأخذ يزفر من أنفه هواءً حارًّا.

شعر المستشارون وفريق صغير من الحاشية – بينهم مهندسون معماريون – وطاقم السكرتارية، بالتوتّر والخوف، وأدركوا أنّ مزاج «الشمس التي تدفئ» نكد للغاية وله رائحة الموت.

هبّ فخامته واقفًا، وصفّق ثلاث مرّات، فغادر الجميع بمن فيهم حرّاسه الشخصيون. تهاوى قاعدًا، وأخرج من جيبه تمثالًا صغيرًا من المرمر للإسكندر الأكبر وركّز عليه أنظاره أملًا بتهدئة خاطره.

لبث العرّاف مكانه كالحجر غاضًّا بصره. تكلّم «منقذ الشعب»، لاهث الأنفاس:

– لم يكن حلمًا بل كابوسًا... والفاصوليا التي أكلتها لم تكن صحنًا واحدًا، بل قدورًا من تلك التي تستخدم في إطعام الجيوش، وكلّها حمراء بلون الدم.

مرّ دهر من الصمت الثقيل المدجّج بالرهبة. انشغل ذهن فخامته خلالها بالممرّات الخفية والملاجئ السرّية. حين أفاق من ذلك الفكر الذي يشبه الهلوسة الصامتة، وقف مستردًّا رباطة جأشه، ودنا برأسه من أذن العرّاف، وتكلّم بصوت أشبه بالفحيح وقد تصاعد من جوفه بخار حارق رطب:

– لم أكن آكلها برضاي، كنت وسط أشخاص يرغمونني على أن أفتح فمي، كانوا يعذّبونني حتى أنّني أحسستُ بحبوب الفاصوليا تخرج من تحتي أكوامًا.

خفق قلب العرّاف في تسارع وشعر ببرودة في أطرافه. أمّا أذنه التي اتسخت بأنفاس فخامته فلم يجرؤ على مسحها، وكان عليه الصبر حتى تجفّ من تلقاء نفسها. رأى مولاه يرتجف، فبذل مجهودًا جبّارًا ليمنع أصابعه من الارتجاف هو الآخر. أخذت الكراسي الفخمة تتمايل، والحوائط المُلبّسة بالرخام تنتفخ كبطون الحبالى، والسجّادة الثمينة تدور عكس

اتّجاه عقارب الساعة، وضوء النهار يخبو في عيني العرّاف المرتعد من هول الموقف.

راح فخامته يلفّ ويدور ويداه خلف ظهره، ثم أشار إلى العرّاف بأن يقترب منه... وفي حركة مباغتة، قبض على عضد العرّاف بكلّ قوته، وحدّق في عينيه من دون أن يرمش، وطالبه بتفسير حلمه من دون غشّ. كتم العرّاف الوجع الذي شعر به، لأنّ قبضة فخامته الفولاذية كادت تسحق لحم ساعده وعظمها. تحدّث بنبرة واهنة وقد تغيّر لونه:

– تعبئة... تعبئة تحصل ضدّك... سيّدي الرئيس.

* * *

في عيد ميلاد العبقري الذي يعرف كلّ شيء، أُقيم احتفال خاصّ – غير مُرخّص لوسائل الإعلام نشر أنباءٍ عنه – حضرته شخصيات محدودة من نخبة مجتمع بوخارست.

أحضر كلّ مدعوّ معه هدية، واصطفّوا في طابور لتهنئة فخامته في عيد ميلاده وتقديم هداياهم في باحة القصر، حيث استقبلهم قرب النافورة التي تكاد تتجمّد من شدّة البرد والخوف!

أحضرت ناديا كومانتشي لاعبة الجمباز الفائزة بتسع ميداليات أوليمبية هديّتين، وقدّمت له إحداهما. فتحها فإذا فيها طقم أقلام باركر مُذهّبة، شكرها ولكنه قبل أن يسمح لها بالدخول سألها عن الهديّة الثانية، فردّتْ أنّها أحضرتها لابنه نيكو، لكنه، ومن دون مراعاة لأبسط قواعد اللياقة، سطا على هديّتها، وقال أنّه سيسلّمه إيّاها بنفسه!

لم تجرؤ ناديا على استرداد هديّتها، ومضت داخلة إلى ردْهَة القصر وقد غرزت أسنانها العلوية في شفتها السفلى من القهر.

فتح فخامته هديّة وزير الإعلام، فوجدها علبة حلوى، ظلّ يتفحّصها بعض الوقت وهو يصغي إلى وزيره الذي أخبره بأنّها حلوى إيطالية شعبية اسمها «بان فورتي» يعود تاريخ ابتكارها إلى القرن الثالث عشر في منطقة توسكانا، وتُحَضّر في الفرن ثم تُرَشّ بطبقة خفيفة من بودرة

السكّر والقرفة، وهي غنيّة بالفواكه المجفّفة والمكسّرات مع خليط العسل والكاكاو؛ وقبل أن يُنهي الوزير الثرثار كلامه، تلقّى على حين غرّة ركلة من فخامته أسقطته في حوض النافورة، فتخبّط في الماء صارخًا من شدّة برودته. رمى فخامته الحلوى على الأرض وداسها بقدميه كأنّه يُهين واحدًا ممّن كانوا يتصدّقون عليه ببواقي الطعام حين كان فتًى إسكافيًّا.

خرج وزير الإعلام من حوض النافورة مبلولًا يرتجف كراية في يوم عاصف، ووقف أمام مولاه كأنّ شيئًا لم يحدث! أمره تشاوشيسكو أن يخلع ملابسه لكيلا يُلوث السجّاد، وأن ينضمّ إلى الحفل عاريًا.

بعد انتهاء طقس استلام الهدايا، ترأّس فخامته مائدة العشاء الباذخة، التي كانت تئطّ بمئات من ألوان الطعام، على الأرجح أنّ المواطن الروماني لم يسبق أن تذوّق في حياته 90 في المئة منها. لكنّ العبقري الذي يعرف كلّ شيء لم يذق منها لقمة، واكتفى بتناول وجبة شعبية معروفة في كل بيت روماني تسمّى «ماما ليغا» مكوّنة من ذرة مطحونة مع زبدة وجبن.

بإيعاز منه، رتّب موظّفو البروتوكول جلوس ناديا في زاوية قصيّة بعيدة عن الأنظار، في جوار وزيره المغضوب عليه الذي لم يجرؤ أحد على إعارته حتى منديلًا ليستر عورته، بينما أجلس ابنه نيكو إلى يساره، حيث لا يسعه اختلاس النظرات إلى لاعبة الجمباز الفاتنة.

بعد تركه مائدة العشاء، بدأت الفرقة الموسيقية العزف، وانقسم الضيوف في مجموعات، بينما ظلّ الوزير المنكود الحظّ والرومانية الأكثر شهرة في العالم يحتسيان الفودكا وحدهما، إذ داهن الضيوف فخامته فنبذوهما. تسلّل الوزير إلى دورات المياه، وحبس نفسه في واحدة منها.

لكنّ الوحيد الذي تجرّأ على الاقتراب من ناديا ومحادثتها كان حاكم ولاية براهوفا، وكان هذا الأخير يكنّ لها احترامًا يصل إلى درجة التقديس.

بعد أن بادلها كلمات المجاملة المعتادة دعاها إلى الرقص فوافقتْ بامتنان، وأثناء الرقص، همس في أذنها:

– لقد تصرّف معك بطريقة وضيعة لا تليق بشخص في مركزه... لقد

أعطى نيكو هديّتك، لكنّه أخبره بأنّها منه... مع الأسف، هو يتصرّف هكذا أيضًا مع الشعب، يُظهر نفسه أنّه يمنحهم خبزهم من جيبه الخاصّ... ليكن الربّ في عون الشعب الروماني.

اضطربتْ خطوات ناديا ونضح جبينها بالعرق، إذ لم تكن تصدّق أنّ هناك من يجرؤ على نقد الديكتاتور.

مكث حاكم ولاية براهوفا ملازمًا إيّاها يسرد لها النكات اللطيفة، لكنّ صخب ضحكاتها اللذيذة أثار انتباه تشاوشيسكو وحسده، فأتى مدير المراسم وأخبر حاكم ولاية براهوفا بأنّ السيد الرئيس يطلب منه أن ينضمّ إليه.

بعد ساعة، ودّع تشاوشيسكو ضيوفه متمنّيًا لهم ليلة سعيدة، وانسحب برفقة ثلّة من خلّانه إلى مكتبه، وكان من ضمنهم حاكم ولاية براهوفا.

انتهز الحاكم فرصة غياب إلينا – التي تُبقي زوجها تحت رقابتها الصارمة طيلة الوقت – وكلّمه في الموضوع الذي جاء من أجله:

– صاحب العظمة دانوب الفكر، عندي لك رجل مثير للاهتمام.

تجشّأ تشاوشيسكو، وقد ثقل جفناه:

– من أيّ ناحية؟

قال الحاكم، وقد عقد يديه خلف ظهره:

– إنّه يحمل شهادة الدكتوراه من جامعة تشيلي العريقة في علم بليتيسموغرافيا القضيب، وهو علم يُعنى بقياس القضيب بين الأعراق.

كان سيادته يقبع خلف مكتبه مسترخيًا على كرسيه، يُغالب النعاس، فقال:

– حقًّا؟! هذا تخصّص نادر، ولكن لا أعتقد أنّ الوطن في حاجة إلى خدماته.

قال الحاكم، وهو يدنو راكعًا ومُخفضًا صوته ليوحي بأهميّة ما سيقول:

– أنا كانت عندي مشكلة تؤرقني وتغرقني في الخجل، سببها أنّ قضيبي قصير، لكنّ هذا البروفيسور الأريب زعم بأنّ للقضيب القصير

ميزات عند المضاجعة تتفوّق بكثير على نظيره الطويل. ربّما كان يكذب، لكنّه أقنعني، فشفيتُ من عقدتي النفسية، وأصبحت قادرًا على مضاجعة أيّ امرأة متاحة.

برقت عينا تشاوشيسكو، واعتدل في جلسته ودبّت الحماسة في صوته، وهو يقول:

– ... ربّك! ولم تذكره لي إلّا الآن يا نذل! هيّا اقعد وأخبرني بكلّ شيء عن هذا الرجل المبارك!

* * *

في الصالة الرياضية الملحقة بقصر الربيع، التقى تشاوشيسكو وهو يتمرّن على الآلات، الرجلَ الذي سيلهمه نظرية جديدة في الحكم.

بدا أ. س. مارتينيث شيخًا وسيمًا في الستّين من العمر، مكتنزًا قصير القامة، حليق الذقن وشارباه خفيفان، شعره مُنعّم ومصبوغ بصبغة سوداء، أنيق المظهر، تتضوّع منه روائح عطور نفّاذة، ويغطّي رقبته بشال أحمر لكيلا يُلاحَظ البهاق الذي يعانيه.

قدّم نفسه بصفته مواطنًا تشيليًّا سُحبت منه جنسيّته، انتسب إلى الحزب الاشتراكي التشيلي أثناء دراسته في الجامعة، وبعد الانقلاب الدموي في العام 1973 الذي أطاح الرئيس المنتخب سلفادور أليندي، اعتقل وسجن ثلاث سنوات.

استمع إليه تشاوشيسكو، فاغرًا فاه ومحدّقًا فيه بإعجاب. ومن دون أيّ حرج، كأنّه يؤدّي وظيفة روتينية، فتح البروفيسور حقيبته السامسونايت، وطلب من فخامته أن يأذن له بإجراء الفحوصات.

تنحنح تشاوشيسكو، واحمرَّت وجنتاه وأمر بإخلاء الصالة؛ أنزل العبقري الذي يعرف كلّ شيء سرواله وباعد ساقيه، وبدأ البروفيسور الفحص، مستخدمًا الكثير من أدوات القياس، ودوَّن في دفتر خشن الغلاف مصنوع من جلد الخنازير أرقامًا كثيرة، ثم استخدم ميزانًا إليكترونيًّا

حسّاسًا لوزن كُرتي تشاوشيسكو، ثم طلب منه أن يُغمض عينيه ويتخيّل نفسه يُجامع السيدة الأولى، ضحك فخامته من أعماق قلبه، وقال:

– هل تمزح؟ لو تخيّلتها فإنّك لن تراه بالمرّة!

تحسّبًا لهذه المواقف، أخرج البروفيسور من حقيبته صورًا إباحية، وطلب من سيادته أن يُحدّق فيها، فنجح الأمر أخيرًا. ثم انهمك البروفيسور في إجراء حسابات معقّدة بآلته الحاسبة، وعندما استخلص النتائج جمع أدواته العجيبة ورتّبها في حقيبته.

سأله تشاوشيسكو، والفضول يدبغ حنكه:

– طمئنّي يا بروف.

ابتسم مارتينيث، مُظهرًا أسنانه الحادّة كأسنان سمك القرش، قائلًا:

– البشارة سيدي الرئيس.

انفرجتْ أسارير فخامته، وقال:

– قل، وعليّ مكافأتك.

سوَّى مارتينيث شعيرات رأسه الخارجة عن مسارها المرسوم، وقال:

– لقد أنعمتْ عليك الطبيعة بالقضيب الذهبي!

رنّت كلمة «الذهبي» في أسماع تشاوشيسكو، ووقعت موقعًا حسنًا في نفسه. أردف مارتينيث، وهو يستعين بالآلة الحاسبة:

– لقد أثبتت الدراسات العلمية التي نشرتها جامعة السوربون، أنّ متوسّط الطول الطبيعي لآلة الذكورة هو 13 سم، وعندما نُطبّق متوالية فيبوناتشي ونقسم متوسّط الطول (13 سم) على النسبة الذهبية (1.6 سم) فإنّ الناتج هو (8.125 سم) وهذا الرقم المسمّى الرقم الذهبي المقدّس ينطبق بدقّة رياضية مذهلة على طول قضيبكم المبجّل.

حكّ الديكتاتور مؤخّرته، وقال:

– كلام مهمّ، لكنّني لم أفهم منه شيئًا... أنا بصراحة بليد في الرياضيات.

نفث مارتينيث سحره بضحكة أنثوية، ورفع يده مؤدّيًا التحيّة العسكرية، مصوّبًا نظره إلى ما تحت سرّة فخامته، وقال:

– أهنّئكم سيدي الرئيس، إنّ الرقم 8.125 سم هو رقم الحظ المطلق، وهو الطول الأنموذجي للأعضاء التناسلية الذكرية للملوك والرؤساء وعظماء التاريخ، أمثال نابليون بونابرت والإسكندر الأكبر وفلاديمير لينين وماو تسي تونغ والرفيق فيدل كاسترو.

تنبّه تشاوشيسكو إلى ستر عورته، وقال:

– يا لي من ظالم غشوم، هل تصدّق أيّها البروف لم تبق سُبّة في القاموس إلّا وشتمته بها، فأنّى لي أنّ أعلم أنّه على هذا القدر من الرفعة والنبل المحْتِد!

استبقاه تشاوشيسكو للغداء، ثم أمضيا المساء معًا وهما يُناقشان كيفيّة تطبيق مبادئ علم بليتيسموغرافيا القضيب وأسسه على إدارة شؤون الدولة.

ومنذ ذلك اللقاء الذي لم يفطن له المؤرخّون، أخذت جمهورية رومانيا الاشتراكية تطبّق نظرية «صدام الآلات» التي ابتكرها البروفيسور أ. س. مارتينيث – قبل صموئيل هنتنغتون صاحب نظرية صدام الحضارات – وتخلّت عن الاشتراكية اللينينية.

لقد أصبح عضو تشاوشيسكو – الذي يساوي طوله الرقم الذهبي المقدّس – الأداة التي يُقاس بها ولاء المواطن، ودرجة وطنيّته، وأهليّته للمناصب الحسّاسة، بل وحتى صلاحيته ليكون جزءًا من الشعب الروماني.

وقد نصّت النظرية التي عُمل بها سرًّا، على أنّ المواطن الذي له عضو أقصر من عضو «دانوب الفكر» يعدّ مواطنًا صالحًا ومطيعًا للنظام واشتراكيًّا بالفطرة، وأنّ المواطن الذي ابتلي بعضو أطول من عضو «دانوب الفكر»، فإنّه يُصنّف مشاغبًا وميّالًا إلى معارضة الدولة وأقرب إلى خيانة الوطن، وأكثر من ذلك ينظر إليه بوصفه برجوازيًّا منحلًّا بالولادة.

كما نصّت النظرية في مرحلتها النهائية على القيام بحملة وطنية كبرى لإجراء عمليّات جراحيّة لتقصير الأعضاء التناسلية الأطول من عضو

«صاحب القضيب الذهبي المفدّى» وتطويل الأعضاء التناسليّة الأقصر منه، للحصول على مجتمع مثالي ومتجانس وحائز أعلى درجات التحضّر.

* * *

بعد سنوات، استدعى فخامته العرّاف الغجري إدمريسكو، وكان هذه المرّة رائق المزاج، معتدًّا بقوّته، وطيف ابتسامة ساخرة تلوح على محيّاه.

قال للعرّاف:

– لقد نجحتُ في التصدّي للتعبئة التي كانت تُحضَّر ضدّي.

ارتعشت يد العرّاف، وهو يشرب القهوة المُرّة، وتحدّث بصوت مخنوق:

– نعم... حتى الآن.

قطّب فخامته جبينه، وقال:

– مخطئ... لقد انتصرت عليهم، وإلى الأبد.

قلب فخامته فنجانه على الطبق، وانتظر بضع دقائق.

شعر إدمريسكو بالسمّ يسري في بدنه، تجلَّد متحمّلًا الألم، وقرأ لتشاوشيسكو فنجانه:

– قريبًا، ربّما في فصل الربيع، ستهبّ رياح عاتية وتقتلعك من جذورك.

ثم تهاوى العرّاف مُنسدحًا على الأرض والرغوة البيضاء تتجمّع على جانبي فمه.

في ديسمبر 1989، انطلقت شرارة ثورة «ربيع الديمقراطية» من تيميشوارا، ثم انتشرت الاضطرابات في جميع أنحاء رومانيا، وحاول تشاوشيسكو الفرار من بوخارست في مروحية، لكنّه لم يتمكّن من النجاة وأُعدم رميًا بالرصاص.

ماركوس يلتقي القتيل

– أنا ديكتاتور ولكنّني لست سيّئًا، ليست لديّ نظرية جاهزة لكي أطبقها، وإن كانت لديّ واحدة فلست أحمق لكي أفرضها عنوة، أنا أحكم وفقًا لهوى الشعب، أحكم بالطريقة التي يرغبون في أن يُحكَموا بها، ولم آتِ بشيء من عندي... بهذا المعنى، أعتبر نفسي ديكتاتورًا صالحًا.

كَفُّ فخامته كانت مبسوطة تراوح بين التقدّم إلى الأمام والرجوع إلى الخلف أثناء حديثه، والحركة لمن يُركّز عليها في معزل من الضجة الصوتية، تشبه إشارة بذيئة للجماع.

استند رئيس الجمهورية فرديناند إيمانويل إدرالين ماركوس على ظهر الكرسي والتوى فمه كمن يلوك ليمونة حامضة بين أسنانه.

ارتشف «الرجل القتيل» شايه متلذّذًا بطعمه ومتسائلًا في نفسه ككلّ مرّة كم يبلغ ثمن هذا الشاي الصيني الفاخر؟! سعل «الرجل القتيل»، وعلّق قائلًا:

– المشكلة في الإنسان الفيليبيني نفسه... نحن الفيليبينيين كلّنا هكذا... رجل الشارع العادي مثلك تمامًا... وأيّ واحد منهم لو واتته الفرصة وصار رئيسًا لنهج النهج الذي نهجت... الفيليبيني من دون العصا يصير إنسانًا فاسدًا وبلا تربية.

وكأنّما يقرأ أفكار ضيفه، قال فخامته من دون مناسبة:

– شاي داهونغ باو... شاي ملكي... الكيلوغرام منه يساوي مليون دولار.

ابتسم «الرجل القتيل»، معبّرًا عن امتنانه بكرم الضيافة، ورفع كوب شاي السيد الرئيس، وأخذ يقرأ له الطالع:

– الحظّ السعيد يحالفك الأيّام كلّها، ثروتك تتعاظم أكثر من أباطرة الصين، تنتصر على أعدائك وتقلعهم كما تُقلع الأعشاب الضارّة، الفيليبين سوف تصلّي من أجلك ليتمجّد اسمك في السماء والأرض.

انشرحت أسارير السيد الرئيس، وصفّق وهو في غاية الحبور من هذه النبوءة الطيبة.

كزّ «الرجل القتيل» أسنانه ورأى أن يتوقّف هنا ولا يغامر بالمضي قدمًا في الإخبار بالغيب... فقد لمح حيّة بعينين ساخطتين مختبئة بين أوراق الشاي.

قال فخامته، وهو يشعل سيجارة:

– بالأمس، اقتلعت إحدى تلك الأعشاب الضارّة.

ضم «الرجل القتيل» ساقيه، وحشر كفيه بين فخذيه:

– من؟

اختلجت وجنتا الزعيم، وقال:

– وزير التربية والتعليم... نفّذنا فيه حكم الإعدام في منتصف الليل وأطعمت جثته بنفسي للأسماك.

تهدّلتْ كتفا «الرجل القتيل» وظهر الرعب في عينيه، وقال:

– هل فكّر في أن يترشّح للرئاسة؟

أفلتت ضحكة مختومة بشهقة من سيادته، وقال:

– لا... ذلك الرجل المبجّل، اكتشفنا أنّه رسم قضيب على الجدار وطلاه باللون الأسود.

بدا الاستغراب على محيّا «الرجل القتيل»، وقال:

– حقًّا إنه أنموذج سيّئ للأولاد... لا يليق به كوزير للتربية والتعليم أن... أن يرسم موضوعات غير محتشمة.

وضع الزعيم رجلًا على رجل، وقال:

– الحقيقة كان رسّامًا بارعًا... ولم نكتشف موهبته إلّا أخيرًا... كنت قد أرسلتُ رجالي لتبديل صوري القديمة بصور جديدة في مؤسّسات الدولة كافّة، وحين وصلوا إلى مكتب الوزير إيّاه وجدوا الرسم البذيء مُذيّلًا بتوقيعه تحت البرواز المُذهّب لصورتي.

حاول «الرجل القتيل» إظهار غضبه، قائلًا:

– يا له من سافل... دنيء!... أنا متأكّد أنّ الأسماك أكثر وطنية منه وستلفظ لحمه القذر ولن تقتات به.

وضع فخامته عقب السيجارة في المنفضة، وفي غمضة عين أتت موظّفة بدينة ذات وجه مستدير بطبق حلوى «هالو هالو» وضعته على الطاولة مع ملعقة فضّية ملفوفة في منديل أبيض.

راح فخامته يزدرد طبقه المفضّل بحماسة، ناسيًا ضيفه. انتظر «الرجل القتيل» حتى فرغ الزعيم من تناول الحلوى، ثم سعل كأنّه يذكّر سيد الأمّة بحضوره، وقال:

– هناك من يريد مقابلتكم.

نظر إليه السيد الرئيس وهو يتلمّظ، قائلًا:

– من؟

تجنّب «الرجل القتيل» النظر مباشرة إلى عيني السيد الرئيس، وقال:

– ملاك.

ضحك فخامته، وقال:

– هاها، لكنّك لم تتنبّأ لي بأنّني سأصير نبيًّا!

قال «الرجل القتيل»:

– هل أفهم أنّ جنابكم موافقون على مقابلته؟

شعّ وجه الزعيم بالسعادة، وقال:

– بالطبع، يمكنه الحضور إلى قصر مالاكانيانغ في الوقت الذي يناسبه... وبالذات إذا كان يحمل لي بشارة من الربّ.

تأوّه «الرجل القتيل» واختفى.

* * *

نزلتِ السيدة الأولى إيميلدا ماركوس إلى حديقة القصر المطلّة على البحر بكامل زينتها ومكياجها، ودماغها يمور بأفكار متلاحقة.

كان اليوم يوافق عيد ميلاد زوجها، وقد أرادتْ أن تحتفل به بطريقة لم يسبق لها مثيل.

جلستْ تحت المظلّة تحفّ بها دستة من الوصيفات اللاتي يرتدين حللًا موحّدة... تنانير زرقاء تصل إلى الركبتين وقمصان بيضاء شيفون بربطة عنق الفراشة لونها أسود. ثلاث منهنّ كانت مهمتهنّ الترويح عن السيدة بمراوح كبيرة من ريش الطواويس، بينما انشغلت الرابعة بتدريم أظافر قدميها.

أحضر خادم قصير القامة مُدوّر كالبرميل ثلاث زجاجات مياه معدنية مثلّجة ماركة إيفيان الفرنسية، وثلاث زجاجات معبّأة بهواء سويسرا الجبلي، وكأس عصير برتقال طازج.

رشفت الوصيفة أليسّا المكلّفة مهمّة تذوّق شراب السيدة الأولى وطعامها بالماصّة من عصير البرتقال، وتمضمضتْ به ببطء، ثم بلعته.

سألت إيميلدا كبيرة الوصيفات:

– هل حضر ذلك الأحمق رئيس الوزراء؟

أجابتها كبيرة الوصيفات:

– نعم، لكنّه في اجتماع مغلق مع السيد الرئيس.

ضحكتْ إيميلدا بسخرية، وأمرت كبيرة الوصيفات بجرّه من أنفه ليمثل بين يديها.

اتّصلتْ هاتفيًّا بسفير الفيليبين في نيودلهي وسألته مباشرة من دون أن تبادله التحية:

– هل تذكر المطعم الهندي الذي تغدّينا فيه كرش الماعز قبل ثلاثة أسابيع؟ حسنًا أريدك أن تشتري عشرة كيلوغرامات وترسلها في

الحقيبة الدبلوماسية، أريدك أن تُشرف بنفسك على الطبّاخين وتتأكّد من وضعهم المقادير الصحيحة من الفلفل.

اتّصلت إحدى وصيفاتها بالسفير الفيليبيني في روما الذي ظلّ ينتظرها، فاتحًا الخطّ. بعدما فرغت من حديثها مع السفير الأول، أخذت السمّاعة الأخرى وطلبت من السفير الثاني أن يرسل على وجه السرعة ألف قطعة بيتزا بيبروني ومثلها سباغيتي مع المحار من مطعم «إيه كوبيولارو». توالت اتّصالاتها بسفراء الفيليبين في مشارق الأرض ومغاربها وهي تطلب منهم ألوانًا من الأطعمة الفاخرة وشحنها إلى مانيلا في الطائرات.

بعد انتهائها من ترتيب حفل عشاء عيد ميلاد زوجها، التفتتْ أخيرًا إلى رئيس الوزراء سيزر فيراتًّا الواقف أمامها في مسكنة، حانيًا رأسه، مُذ استدعته. قالت له:

– اسمع أيّها الغائط، أريد أن يحضر الوزراء وأعضاء المجلس العسكري كافّة إلى الحفل وهم يرتدون ملابس نسائية، وينتعلون أحذية لها كعوب عالية، وعلى رؤوسهم باروكات شعر شقراء، والأساور الذهبية تُخلخل في معاصمهم، وأن يتبرّجوا بكحل العيون وأحمر الشفاه وبودرة الخدود، وأن يتعطّروا بعطور نسائية مثيرة للشهوة... واكتموا الأمر عن زوجي. أنوي أن أعمل له مفاجأة لن ينساها أبدًا.

حكّ رئيس الوزراء أذنه التي أخذت تحمرّ، وقال:

– حتى أنا؟

ردّت بجفاء:

– حتى أنت! أريد أن أرى ما إذا كان سيعرف أنّكم رجاله أم سيحسبكم آنسات متغنّجات فيطلبكم إلى غرفة نومه!

ضحك رئيس الوزراء ضحكة عصبية متوتّرة.

كلّفته مهمّات أخرى تخصّ الحفل المرتقب وصرفته.

جاء بعده وزير المال فبادرته إلى الشكوى فور أن وقعت عيناها عليه:

– فرناندیز، لم أعد أُطيق الجوّ الحارّ في مانيلا، بشرتي يغمق لونها من

لفح الحرّ.

ردّ وزير المال:

– هذه مشكلة يمكن التغلّب عليها بسهولة يا صاحبة السعادة، يمكننا تزويد حديقة القصر بشبكة تكييف ذات قدرة تبريد جبّارة، حيث يمكن سيادتك التنزّه في الهواء الطلق وأنتِ ترتدين معاطفك الثمينة.

قالت إيميلدا ساخطة:

– ما هذا السخف يا فرنانديز؟! لقد سئمت الأجواء الاصطناعية، أريد منك أن تشيّد لي قصرًا في القطب الجنوبي.

تنحنح وزير المال محرجًا، وقال:

– ولكن، يا صاحبة السعادة، كيف سنبرّر هذه المصروفات؟ وتحت أيّ بند؟ حضرتكم تعلمون أنّ الصحافة الأجنبية تحشر أنفها في كلّ شيء.

قالت إيميلدا، وهي تضع رجلًا على رجل:

– أراك تريد أن تصنع منها مشكلة كبيرة يا فرنانديز، سجّل المصاريف تحت بند بناء سفارة لدولتنا هناك.

قال وزير المال، ونبرة صوته تخفت:

– لكنّ القطب الجنوبي لا يعتبر دولة، إنّه مجرّد ثلّاجة جليدية لا يسكنها أحد.

قطّبت إيملدا حاجبيها، وأظهرت له وجه اللبؤة المتنمّرة، قائلة:

– أنا أحذّرك! نفّذ طلباتي من دون تلكّؤ وإلّا حرّضتُ زوجي على إقالتك من منصبك.

ركع وزير المال متذلّلًا وقال:

– أرجوكِ يا أمّ الوطن أن تغفري لي زلّة لساني، منذ هذه اللحظة ستباشر الوزارة في إعداد مشروع بناء القصر وتنفيذه.

صرفته إيميلدا بإشارة متكبّرة من سبابتها.

بعد أفوله، مَثُلَ بين يديها مدير مكتب رئاسة الجمهورية، وأخبرها بأنّ صحافيًّا من مجلة التايم الأميركية يتمنّى لو تتفضّل عليه بإجراء حوار صحافي لمجلّته. أشرق وجه إيميلدا بالسعادة، وأمرت بإحضار الصحافي.

تزامن وصوله مع حلول موعد إفطارها. حضّر الخدم المائدة، وكسرب من النمل نقلوا العشرات من أطباق الطعام بعضها مغطًّى وبعضها مغلّف بالمشمّعات الشفّافة؛ وكان على الوصيفة أليسّا أن ترفع الأغطية وتشقّ المشمّعات لتذوق لقمة واحدة من جميع تلك المأكولات التي تكاد المائدة تطفح من كثرتها.

أقبل الصحافي الأميركي في خطوات واسعة مرتديًا بنطالًا من الجينز وقميصًا نصف كمّ مُشَجَّر وصديريّة فيها جيوب كثيرة، وعلى رأسه قبعة بيسبول زرقاء، معلّقًا في رقبته كاميرا، وعلى كتفه حقيبة رياضية سوداء. صافح سيدة البلاد الأولى، وعرّفها بنفسه: «جون». وبعد تبادل العبارات الودّية المعتادة، أخرج المسجّلة المزوّدة بميكروفون من حقيبته.

قالت وهي تصلح هندامها:

– من فضلك يا جون، أريد أن تنزل صورتي على غلاف المجلّة، وأريدك أن تنشر الحوار في عدد خاصّ عنّي... أنا شخصية عالمية مهمّة، وعندما تصدرون عددًا خاصًّا عنّي فإنّ مجلّتكم سترتفع مبيعاتها إلى أرقام قياسية.

قال الصحافي، وهو يبذل جهدًا لكي يبتسم:

– مفهوم سيدتي، هل نبدأ؟

احتستْ إيميلدا عصير البرتقال على دفعات، ثم أعطته الإذن. ضغط الصحافي زرّ التسجيل وأدنى الميكروفون منها:

– السيدة إيميلدا ماركوس قرينة رئيس جمهورية الفيليبين الملقّبة بالفراشة الحديدية، هل لنا أن نعرف برنامجك اليومي؟ كيف تمضين وقتك؟

قالت مرقّقة صوتها:

– أنا كما ترى، أمضي نهاري كلّه في العمل الشاقّ من أجل مصلحة بلادي، مثلًا حديقة القصر أنا أعتني بها بنفسي لأوفّر أجرة البستاني على خزينة الدولة، وعلى هذا الكرسي أجلس ساعات لحياكة جوارب صوف لأطفال دور الأيتام، وهؤلاء الوصيفات اللاتي تراهنّ هنا كنّ أصلًا

مشرّدات التقطهنّ من الشوارع، وهنّ الآن يشتغلن في تفصيل فساتين السهرات النسائية الفخمة وتطريزها لنبيعها لبيوت الأزياء في الخارج، وهذا كما تعلم يدرّ مبلغًا جيّدًا من العملات الصعبة، وأنا أقدّم كلّ ما أحصل عليه من المبيعات لخزينة الدولة.

قال الصحافي:

– هناك شائعات يتداولها الشارع الفيلبيني بأنّ السيدة الأولى مبذّرة وتنفق مبالغ خيالية على أحذيتها وملابسها وحقائبها وأكسسواراتها؟

اغتاظت إيميلدا من السؤال فردّت بصوتها الحقيقي الغليظ:

– هذا هراء، المعارضة الموتورة هي التي تنشر هذه الأقاويل المغرضة لتشويه سمعة الفيليبين كبلد ديمقراطي يتمتع بالحرية ولديه علاقات دولية ممتازة، الحقيقة هي أنّني أعمل ستّ ساعات في المساء لدى شركة في القطاع الخاصّ لترجمة مراسلاتها التجارية، وأجري أُقدّمه كلّه لزوجي مساهمة منّي في المصاريف، فمرتّب زوجي محدود جدًّا ولا يكفينا إلى آخر الشهر.

وكتعبير عن سخطها من سؤاله المستفزّ، طلبت إيقاف التسجيل، وأخذت تُحادث مدير مكتب الرئاسة:

– رامون، معجون تفتيح البشرة الذي اشتريته لي من لندن لم يناسبني، سبّب لي حكّة واحمرارًا في الجلد.

تصنَّع رامون الغضب، وقال:

– الإنكليز الكفرة بالصليب! سأُصدر أمرًا تنفيذيًّا بحظر دخول البضائع الإنكليزية إلى الفيليبين إلى أجل غير مسمّى.

قالت إيميلدا، وقد أراحها جوابه:

– كلا، لا أريد شوشرة مع هؤلاء الخبثاء المتربّصين، المهمّ هل أنت متفرّغ غدًا أم لديك مشاغل؟

أصلح رامون ربطة عنقه، وتنحنح ثم قال:

– للأسف أنا مرتبط غدًا بموعد مع وفد من البحرين، ولكن ما الموضوع؟

قالت سيادتها:

– سمعتُ أنّ في نيويورك محلًّا راقيًا لموادّ التجميل يبيع معجونًا مذهلًا لتفتيح البشرة مصنوعًا من موادّ طبيعية، وهو لا يُوزّع تجاريًّا، وإنّما يُحضّر بالطلب لكبار الزبائن فحسب.

قال رامون:

– لا مشكلة يا وليّة النعم، وزير الدفاع يعاني الضجر، لذلك سيفرح كثيرًا عندما نكلّفه الذهاب إلى نيويورك لشراء صناديق عدّة من معجون البشرة.

قالت سيادتها:

– جيّد، أرسله.

أقحم الصحافي الأميركي، الذي شغل وقته بالتقاط الصور من زوايا عدّة للسيدة الأولى، نفسه في حديثهما:

– عفوًا أيّها السادة، هل يحقّ لي أن أنشر الخبر في المجلّة؟

جحظت عينا إيميلدا، ورفعت صوتها فيه:

– إيّاك أيّها الغبي... هذه مسائل شخصية، وإذا تسرّبت إلى الصحافة فسوف أرفع عليك وعلى مجلّة التايم دعوى قضائية بتهمة التعدّي على الخصوصية ونشر أخبار ملفّقة.

اعتذر منها الصحافي وهو يلعنها في سرّه.

قال رامون محاولًا تلطيف الأجواء:

– لديّ فكرة جيدة يا وليّة النعم، أقترح أن ننشر خبرًا عن سفر وزير الدفاع على رأس وفد رسمي إلى الولايات المتّحدة لعقد صفقة أسلحة، إنّ خبرًا كهذا سيبثّ الذعر في أفئدة المعارضين لقائدنا المعظّم.

قالت سيادتها، وهي تبسط ملامحها المتوتّرة:

– أحسنت، بهذه الصيغة لا مانع من نشر الخبر!

التفتت إلى الصحافي، وقالت:

– انظر يا جون، لقد حصلت للتوّ على سبق صحافي!

ابتسم الصحافي ممتنًّا على مضض.

قال رامون:

– ملاحظة صغيرة يا جون، عليك أن تتحرّى الدقّة في نشر الخبر، فتذكر أنّ وزير دفاعنا المبجّل سيعقد صفقة لشراء أحدث الدبابات والطائرات والسفن الحربية الأميركية لردع أعداء الفيليبين في الخارج والداخل.

تمطّتْ إيميلدا، وقالت:

– يا لك من خرتيت بارع يا رامون! هيا اذهب لإنجاز المهمّات الوطنية التي كلّفتك إيّاها، وأنا سأتحمّل مسؤوليتي التاريخية وأُكمل حواري الصحافي.

ذهبت سيدة البلاد لتناول إفطارها؛ قعدتْ على الكرسي الوحيد المعدّ لها عند رأس المائدة. استأذنها الصحافي في التغيّب مدّة ساعة ريثما تفرغ من إفطارها، لكنّها طلبت منه المكوث وأشارت إلى ساعة ذهبية في طرف المائدة على هيئة زورق شراعي، قائلة:

– أترى تلك الساعة؟... ما زال أمامي نصف ساعة قبل أن أضع في فمي أول لقمة، هذه إجراءات أمنية، أعداء الوطن يحاولون تسميمي، أنت نفسك سمعت الأباطيل التي تقال عنّي، يتّهمونني بالتبذير والإسراف وأنّني بدّدتُ أموال الدولة على أهوائي الشخصية... ولا يعلمون أنّ أناقتي هي سرّ شهرة الفيليبين في العالم... حتى أنّ الصحافة الدولية تلقبّني أنا وزوجي بكنيدي آسيا... لقد حاولوا تسع مرّات دسّ السمّ في طعامي، وفي كلّ مرّة كنت أنجو، حقدهم الأعمى تسبّب في خسارتي تسعًا من وصيفاتي، ورغم محاولاتهم الخسيسة الجبانة كلّها لقتلي هأنذا صامدة، وسأظلّ ملتزمة قضايا الوطن حتى الرمق الأخير.

تابع الصحافي إجراء الحوار، واقفًا وهو يتعجّل في نفسه الخلاص منها:

– تعيش الفيليبين حاليًّا أزمة اقتصادية خانقة، وهناك مصانع كثيرة أقفلت أبوابها، وشركات أعلنت إفلاسها، وهناك شائعات أنّ الدولة قد تعجز في المستقبل القريب عن دفع مرتّبات الموظّفين، ما تعليقكم على ذلك؟

شبكتْ أصابعها المزدانة بالخواتم، وقالت:

– أرى أنّه لا بدّ من القيام بحملة وطنية لتقليل النفقات واتّباع سياسة التقشف، إنّني من خلال الصحافة أدعو جميع المواطنين الفيليبينيين إلى الكفّ عن الاستهلاك والاكتفاء بالحدّ الأدنى من المعيشة، وأنصحهم بالنوم بعد غروب الشمس مباشرة لتوفير الكهرباء، وأن يغسلوا ملابسهم بماء البحر لتقليل عبء فاتورة المياه على جيوبهم، وأن يأكلوا وجبتين في اليوم لنوفّر على الدولة جزءًا من الموادّ الغذائية المستوردة بالعملة الصعبة، أنا مثلًا أكتفي بوجبة واحدة في اليوم، وكما ترى أُطبّق سياسة التقشف على نفسي وعلى العاملات عندي، فنكتفي بصنف واحد من الطعام، وهو غالبًا طعام نباتي، لأنّني لا آكل اللحم إلّا في المناسبات الوطنية فحسب.

قطعت استرسالها في الكلام صيحة ألم حادّة أطلقتها الوصيفة المتذوّقة أليسّا، التي هرولت إلى طبق كبد الإوز وتقيّأت فيه. أُصيب الجميع بالذهول وضربتْ الرعدة بدن السيدة الأولى. سقطت أليسّا على العشب وجسمها يتشنّج تشنّجات عصبيّة من تأثير السمّ. ركضت الوصيفات وحملنها وأردن إسعافها إلى العيادة الملحقة بالقصر، لكنّ السيدة الأولى صرخت فيهنّ، قائلة:

– انتظرن... اطرحنها هنا، هل رأيت يا جون؟ هيّا التقط صورًا لهذه المسكينة، وانشر في مجلّة التايم خبر هذه المحاولة الإجرامية النكراء لاغتيالي بالسمّ.

راح جون يلتقط الصور، وفي الأثناء لفظت أليسّا أنفاسها الأخيرة. تُرك الجثمان عند الشاطئ، وذهبت سيدة البلاد الأولى إلى إحدى صالات القصر الفخمة لإكمال حوارها الصحافي.

* * *

لم يتمكّن السيد الرئيس من النوم. حسد إيميلدا التي تنعم بنوم قطّة متخمة! سمع رفيف جناح فارتجف وكاد يبول في سرواله. كان يتخوّف أن يخترق «الملاك» أحد الجدران ويظهر أمامه فجأة. راح يأكل أظافره ويناجي

نفسه بصوت خفيض للغاية: «إذا كان يريد التوسّط لأحد المعارضين المحكومين بالإعدام فلن أقابله... لقد رفضت قبله مقابلة البابا بجلالة قدره».

سمع بوضوح صوت «تكّة» في دماغه تشبه صوت القفل حين يُفتح.

فكّر في أن يختبئ في الحمّام. أغمض عينيه وجرى بخفّة وأغلق الباب خلفه. قعد على المرحاض وقضى حاجته في بطء ومعاناة مستخدمًا يده لحلب عضوه الشبيه بالإسفنجة وإدرار البول منه.

«إذا أراد مقابلتي، فإنّ عليه أن يراعي قواعد البروتوكول في مقابلة رئيس الدولة... عليه أن يتقدّم بطلب رسمي إلى مكتب رئاسة الجمهورية وهناك يُحدَّد موعد المقابلة... لكن، في كل الأحوال ماذا يريد؟ هل سيتجرّأ على محاسبتي وتقريعي؟ نعم، أنا قتلته لأنّه تجرّأ على الترشّح أمام والدي في الانتخابات... هل اشتكى إليك هه؟ هل أنت والده؟ ولي أمره؟ هذا المأبون التافه يستدعيك كأنّه ولد صغير تعرّض للضرب في المدرسة... أنا متأكّد أنّه بكى لاستدرار عطفك وشفقتك... إنّه حثالة لا تصغِ إليه... أوه الكلام معك لا يفيد... أنت مجرّد آلة... روبوت... الربّ يتحكّم فيك وأنت تنفّذ فحسب... ما فائدتك في كلّ حال؟ حتى الربّ لديه جيش ينفّذ أوامره ويخيف به البشر المساكين أمثالي! ما الفرق بيني وبين الربّ؟ كلانا لديه أعوانه الذين يبطشون بالمخالفين أليس كذلك؟ أنا أعذّب المعارضين وهو يفعل ذلك أيضًا... الذين يطيعونني أعطيهم كرامة وأرفعهم فوق الآخرين... أليس كذلك يفعل الربّ بمن يطيع أوامره؟ لكن، قل لي حقًّا هل لديك القدرة على التفكير؟ هل لديك عقل أصلًا أيّها الملاك حتى تفهم أنّني غير مذنب؟ ماذا لو تجرّأت أنت على مخالفة أوامر الربّ، هل تعلم ما الذي سيحدث لك؟ سوف تحترق تمامًا... أنا أيضًا لا أطلب شيئًا سوى الطاعة، وأمّا غير ذلك فهم أحرار. أنت تثير رعبي لأنّك بلا جلد... الجلد ضروري لأشعر بأنّك طبيعي... عليك أن تشتري واحدًا لكي تكون ندًّا لي... اِسرق جلد شخص ما، وتعال واجهني رجلًا لرجل... ينبغي أن تفهم أنّ الاتّصال بالبشر أمر غير سارّ... لا أحد يرحّب بك... حتى

الأنبياء قبلوا ملاقاة أمثالك على مضض... أعتقد أنّهم في دواخلهم كانوا يكرهونكم، ولكنّهم كانوا مرغمين خوفًا منكم... لقد جلبتم لهم شتّى أنواع المصاعب وجعلتم حياتهم معقّدة ومضطربة وخالية من المسرّات... إن عرضت عليّ النبوّة فسوف أرفضها، لست على استعداد لخسارة راحة بالي ومتعي البسيطة في الحياة من أجل مخطّط غامض لا أعرف عنه سوى القليل... دعني وشأني أيّها الملاك، إنّني أعتذر عن عدم مقابلتك، وأرجو أن تتفهّم أسباب هذا الاعتذار.»

شعر الرجال الثمانية الذين يحملون التابوت بأنّه صار ثقيلًا فجأة، وكادت مناكبهم تتحطّم وترنّحوا في مشيتهم، واستعادوا توازنهم بصعوبة. ظنّ كلّ في نفسه أنّ واحدًا منهم قد ترك التابوت وفارقهم.

حفل الرئيس عمر بونغو

دخل فخامته قاعة الاحتفال من باب صغير – الباب الخاصّ بالخدم – وتوافد رجالات الدولة للسلام عليه وتهنئته بعيد استقلال جمهورية الغابون. كلّ الذين اقتربوا منه شمّوا رائحة قوية عالقة بشاربيه، رائحة أثارت غيرة بعضهم، واشمئزاز بعضهم الآخر، وأصابت قلّة منهم بالغثيان. واحدًا منهم فقط وهو نائب وزير الخارجية انسحب بحذر إلى دورة المياه ليتقيّأ.

همس مدير التشريفات في أذن سيادته، فتجاهله ولم يُعره أدنى انتباه.

أُحضرت إلى الحفل ماري تانكونكو، أشهر ضاربة ودع في الغابون، أُحضِرت رغم أنفها، لأنّها متعالية جدًّا ولم يسبق لها قطّ أن لبّت دعوة أحد مهما علا شأنه، وكانت هي أول من سأل عنها فخامة الرئيس حين ظهر على الملأ.

المُفَوِّلَةُ – من الفأل – أحضرت معها صحنًا بلاستيكيًّا رخيصًا وأصدافًا بحرية بيضاء صغيرة. سلّم عليها رئيس الجمهورية عمر بونغو أونديمبا في حرارة، ثم نادى ابنه البكر، فأتى غلام ناهز البلوغ وهو يتغنّج في مشيته متمايلًا، وخصره من ناحية الشمال يميل إلى الأسفل ليوازن ثقل المسدس المعلّق في حزامه من ناحية اليمين.

حملتْ العرّافة الأصداف في كفّها وطلبت من سيادته اختيار صدفتين، فلمّا فعل، أمرته أن يضمّهما إلى صدره وينطق بما يرغب في كشفه.

وضع فخامته قبضته فوق قلبه، وقال:

– أرغب في الكشف عن مستقبلي ومستقبل ابني علي.

سكنت القاعة وأرهف الجميع آذانهم بما في ذلك الذباب الذي تمكن بمشقّة من التسلّل. استعادتْ العرّافة ماري تانكونكو الصدفتين من السيد الرئيس وخضّتهما، ثم ألقتهما في الصحن واكتفت بهما في الكشف، بينما أبقت الأصداف الأخرى خارجًا. كانت تُديمُ النظر في الصدفتين وتتنبّأ كأنّها تقرأ ورقة مكتوبة، ثم تهزّ الصحن هزًّا خفيفًا وهي تحدّقُ بإنعام في وجه الرئيس الحاج عمر بونغو الذي سالتْ حبّات من العرق على صدغيه من حدّة تلك النظرات، ثم كانت تتابع الكشف مُركّزة أنظارها على الصدفتين بعينين مفزعتين.

وهذه كانت الكلمات التي بقيت ترنّ في أسماع الشعب الغابوني حتى يومنا هذا: «ستحكم الغابون مدى الحياة / ستواجه أحداثًا لكنّ فرنسا ستهبّ لمساعدتك / أعداؤك الكثيرون لن يصلوا إليك، بحكمتك تغلبهم ويصيرون من أعوانك / أربعون سنة يبجّلونك، أربعون سنة يقدّسونك، أربعمئة سنة يستعيدون ذكراك».

احتضن الرئيس ابنه علي، وعيناه تترقرق فيهما الدموع، وارتجّت القاعة بتصفيق تصاعدي عارم وهتافات حماسية، وبلغ الانفعال مداه فدمعت العيون وأُجهش العاطفيون ببكاء حارّ، وارتفعت المعنويات إلى السماء. دخل المدعوّون الذين يربو عددهم على الخمسمئة في حالة نشوة يصعب وصفها، وشعر كلّ واحد منهم بحبّ جارف نحو القائد، وتمنّى كثير منهم لو أنّ المقام يسمح بالرقص والصراخ بجنون ليعبّروا عن فرحهم بهذه البشارة العظيمة. ارتجل سيادته كلمة تفيض وطنية، وناشدهم بكلّ مقدّس لديهم أن يهبوا حياتهم من أجل سؤدد الوطن وسعادة المواطنين. بعدما أنهى خطابه الوجيز، إذا بنخبة المجتمع الغابوني قد جُنّتْ بمعسول كلامه، وكان الشعور الذي يكاد يُلمس في الهواء هو الرغبة الملحّة في السجود، تعبيرًا عن الولاء غير المحدود، الذي يكنّونه لقائد الأمّة الطاهر الآباء والجدود.

استدار فخامته إلى التورتة المربّعة الشكل التي يبلغ طولها مترًا وعرضها مترًا، وأبدى إعجابه بالحلواني اللبناني الذي صنع بالكريمة ألوان علم الغابون: مستطيل أخضر، مستطيل أصفر، مستطيل أزرق. ناولوه سيفًا فشطرها نصفين واجتزأ منها قطعة وضعها في صحن خزفي، ثم حثّ خطاه إلى حيث كانت تجلس ماري تانكونكو مفترشة الأرض. لحق به مدير التشريفات وأخبره وهو يلهث بأنّها قد رحلتْ. تبادل معه حورًا قصيرًا على انفراد، ثم عاد أدراجه إلى المائدة ليجد رجاله الأشاوس قد نهشوا التورتة بأكفّهم وأظافرهم وكلٌ يحمل «هَبْرَةً» منها في راحته ولم تلزمهم الصحون مطلقًا. شاهدَ وزير الداخلية يتشاجر مع وزراء آخرين على ما تبقّى من التورتة، وقد تلطّختْ بِذَلُهم وهم يتدافعون كالثيران ويلكز بعضهم بعضًا بالمرافق ويتبادلون السباب البذيء. فقد الرئيس الحاج عمر بونغو أعصابه فركل المائدة وهو يتميّز من الغيظ، فجمد الوزراء في أماكنهم مصدومين. صاح الرئيس فيهم مؤنّبًا:

– أنتم يا مكائن البراز العتيقة الطراز كنتم في الماضي ترتدون الأسمال وتُحافظون عليها أكثر ممّا تحافظون على شرف زوجاتكم، وعندما صنعتُ منكم مسؤولين في الدولة واشتريتُ لكم هذه البذلات من أرقى المحالّ في باريس، أصبحتم لا تبالون إن اتّسخت أو تمزّقت... هل تدركون كم يبلغ سعر البذلة الواحدة؟!

برز فجأة دماغ وزير المال من وسط الحشد، وأعطى الجواب كتلميذ شاطر في فصل:

– خمسة آلاف وخمسمئة وثمانين دولارًا.

هزّ الرئيس الحاج رأسه هزّات خفيفة يعلم المقرّبون منه أنّها نذير شرّ، إذ هو الآدمي الوحيد على وجه الأرض الذي يستخدم هذا الإيماءة بالوجه للوعيد بالويل.

طلب من المتشاجرين، وعددهم خمسة، أن يخلعوا بذلهم. لبّى الأمر وزراء الرياضة، البنية التحتية، التعليم، الثروة السمكية، بينما تصلّب وزير الداخلية ولم ينفّذ الأمر. دنا الرئيس الحاج من وزير البنية التحتية وراح

يفحص خامة قماش سرواله الداخلي. خاطب فخامته جمهور الحفل في صوت جهوري: «أيّها السادة الحضور، هل تعرفون مشكلة الغابون؟». لم يجبه أحد وخبّأ وزير المال دماغه بين الأقدام. فأجاب نفسَه: «الغابون دولة نفطية غنية، لكنّ مشكلتها ضعف البنية التحتية... خذوا على سبيل المثل السيد العالي المقام بيرنارد وزير البنية التحتية... إنّه يركب سيارة رولز رويس، ويضع في معصمه ساعة رولكس، ويتعطّر بعطر فرنسي ماركة لانكوم، أي أنّ الغابون قد أنفقت قرابة المليون دولار لكي يظهر هذا المخلوق البشع في مظهر لائق!... ورغم تلك المصروفات كلّها، فإنّ سرواله الداخلي فضيحة... لقد اشتراه من إحدى الأسواق الشعبية، ربّما من أحد البسّاطين على رصيف، وغالبًا لن يزيد سعره على ربع دولار! الصحافة الدولية أكلت وجهي وهي تنتقد البنية التحتية الضعيفة في الغابون... والآن فحسب، فهمت ما تقصد!»

راح فخامته يُربّتُ كتف وزير البنية التحتية الذي انكمش من الحرج.

«إنّني أرجو... لا الرجاء لا يكفي... إنّني أتوسّل إلى المحترم بيرنارد أن يبذل قصارى جهده لتحسين البنية التحتية للغابون»، قال وهو يداعب مجداف وزيره، مضيفًا «لأنّ الغابووون غالية علينا!».

فجأة، تحوّل الجوّ في القاعة من التجهّم والتوتّر إلى الانبساط والمرح وسقط بعض الحاضرين على الأرض من شدّة الضحك.

طلب سيادته من الوزراء الأربعة الذين أطاعوا أوامره أن يرتدوا ثيابهم ومنحهم فرصة أخيرة. أما وزير الداخلية أندريه بالامبي الذي رفض إطاعة الأمر، فقد راح فخامته يحوم حوله كالأسد ويداه على حقويه. قال وهو يواجه وزيره العاصي:

– أنت بطيء الفهم جدًّا يا أندريه... الآن فحسب، فهمت لماذا يحبّك المجرمون والمتمرّدون ويطالبون ببقائك في منصبك... لأنّ الواحد منهم يمكنه أن يمضي راجلًا من ليبرفيل ويشرب الشاي عند الحدود، ثم يتابع طريقه وأنت تتلكّأ في إرسال مفرزة لاعتقاله.

تكلّم وزير الداخلية، بلهجة زقاقية صفيقة:

– سيدي الرئيس الحاج، أنا مستقيل.

التوى فم سيادته، موحيًا بظلّ ابتسامة تقطر سخرية، وقال:

– الاستقالة مقبولة أيّها الجنرال... لذا، عليك أن تُسلّم فورًا جميع الأملاك العائدة للدولة الغابونية.

وقع وزير الداخلية في الفخ، وهمّ الحرس الرئاسي بتجريده من ملابسه، فسارع إلى نزع الساعة الرولكس وتخلّص من الجزمة ماركة بيرلوتي المصنوعة يدويًّا، ثم خلع سترته وربطة العنق الحمراء والقميص الأبيض، وسُمع صوت صريف أسنانه وهو يفك الحزام ويخلع بنطلونه. أُصيب الحاضرون بالذهول ولم يصدّقوا ما تراه عيونهم. أشعل الرئيس الحاج عمر بونغو سيجارة وراح يدخّن في هدوء، مانحًا ضيوفه وقتًا طيّبًا للفرجة والنميمة.

حين أنهى فخامته السيجارة، وبدا أنّ مزاجه قد تحسّن، أمر باستدعاء مادلين، موظّفة تحويل الاتّصالات الهاتفية التي التحقت حديثًا بالعمل في القصر الجمهوري. أتت الأخيرة وهي ترتدي تنّورة حمراء تصل إلى منتصف ساقيها وقميصًا أبيض من دون أكمام. سألها الرئيس بلهجة عادية ما إذا كان «الكلسون» الذي يلبسه معالي وزير الداخلية يخصّها، بالكاد تحرّك رأسها بالموافقة، وهي لا تجرؤ على النظر إلى أحد. خاطب الرئيس الحاج عمر بونغو ضيوفه من نخبة المجتمع الغابوني بلهجة مريرة:

– من يصدّق هذا... لديّ وزراء ينهبون كلّ شيء في البلد، حتى الملابس الداخلية للنساء لم تسلم منهم... أيّها الناس، ساعدوني... اشرحوا لهذا الكائن العصي على التصنيف أنّه لا توجد علاقة مطلقًا بين وزارة الداخلية والسراويل الداخلية للنساء!

امتعض وزير الداخلية من الإذلال القاسي الذي تعرّض له، فتكلّم محاولًا لملمة البقية الباقية من كرامته:

– أيّها الزعيم القائد عمر بونغو أونديمبا، أطالبك بأن أُعدَم بشرف رميًا بالرصاص.

ضحك عمر بونغو، وصفّق وقال:

– لا لا لا... في حالتك، لم يعد الإعدام عقوبة... إنّه مخرج مريح لتهرب من العار الذي لحق بسمعتك وسمعة عائلتك أيّها الجنرال.

كانت الأبنوسة الكحلاء الفائقة الجمال مادلين ترتجف والدموع تنهمر على خدّيها. كفكف الرئيس دموعها وتذوّقها، قال لها وهو يبتسم برقّة ابتسامة عميقة تشمل عضلات الوجه كلّها وتبرز وسامته المخبّأة خلف مظهره الرسمي الجافّ:

– آنسة مادلين، سأطلب منك الالتزام بثلاثة أمور لأعفو عنك.

اطمأنّتْ مادلين وانشرح صدرها، وهمّت أن تُعانق الرئيس، وبالكاد تمكّنتْ من السيطرة على عواطفها الجيّاشة.

تكلّم فخامته والآذان تنصتُ بانتباه لحديثه:

– الأول أن تأكلي جيّدًا لأنّني أرى أنّكِ نحيفة إلى درجة توحي بأنّنا نُجوّعُكِ عمدًا في القصر!

قهقه الحشد وابتسمتْ مادلين وأوحت أنّها ستفعل. واصل فخامته:

– الأمر الثاني ألّا تُعطي أيَّ وزير غابوني ملابسك الداخلية... احتفظي بها لنفسك رجاءً!

ضجّت القاعة بالضحك وقد سرّ الحضورَ الزعيمُ بخفّة ظلّه، حتّى مادلين نفسها ضحكتْ متغلّبة على شعورها بالحرج. تلقّى الرئيس تعليقات ظريفة عدّة من هنا وهناك، ثم علّق هو الآخر:

– نعم نعم، ينبغي الوقوف بحزم أمام هذه الظاهرة الخطيرة... تخيّلوا فتاة في هذا الجمال الربّاني الهائل ووزراء على هذه الدرجة من الانحراف الفظيع يجتمعون في دولة واحدة... فهل تعرفون العواقب؟ الغابون سوف تُشهر إفلاسها!

ضحك القوم حتى أوجعتهم بطونهم، وشكروا القدر الذي منحهم يومًا كهذا. تنهّد الرئيس الحاج عمر بونغو في حرقة من صميم فؤاده وتطلّع إلى الموظّفة الجديدة، وتابع:

– الأمر الثالث... ما دمتِ تعملين هنا، فعليكِ أن توليها عنايتكِ، أشار إلى موضع حساس، بماء الكولونيا والصابون ثلاث مرّات يوميًّا.

سحب سيادته منديلًا أبيض من الجيب العلوي لمعطفه، وراح يمسح شاربيه في وقار يُحسد عليه، وهاجت القاعة بالهتاف والتصفيق تقديرًا لشجاعته الأدبية.

أمّا مادلين الحلوة كحلاوة الشهد فقد صُعقتْ وبَجَمَتْ عن الردّ. مكثتْ برهة تُحملقُ في وجه الرئيس وفمها مفتوح وفكّها الأسفل يرتعد، ثم تهاوتْ في أحضانه فاقدة الوعي.

وصفة عيدي أمين

اجتمع «قاهر الإمبراطورية البريطانية» مع القادة العسكريين السبعة الممسكين زمام الأمور في جمهورية أوغندا.

تَكْبُر سلطته فتضيق عيناه في تلازم لم يُفْقَه معناه. ضاق صدره حين علِم أنّ شعبه يُطلق عليه لقب «جزّار أفريقيا»، فدخل مقرّ قيادة الجيش عابس الوجه، وهو يرجّ الأرض بقدميه متحدّيًا ومتباهيًا بقوّته البدنية الهائلة.

الأخدودان اللذان يفصلان الأنف عن الخدّين ازدادا غورًا، فبدا أقرب شبهًا بالأسد أكثر من أيّ وقت مضى.

جلس «الرئيس إلى الأبد» على كرسيّه المزخرف المرتفع عن الكراسي الأخرى وهو واجم، وراح يحدّق مشمئزًّا في أزلامه وهو يكاد يفترسهم بنظراته التي تذيب الحجر. انتاب جميعهم الرعب، ومن كان مصابًا بمرض السكري فقد بات يتعذّب محاولًا السيطرة على نفسه من شدّة إلحاح البول. ليس سرًّا أنّ الكلّ يحذر من غضبته، ومن تقلّبات مزاجه التي قد تعني في ساعة مشؤومة النهاية المحتومة.

أحضرت نادلات اسكتلنديّات شقراوات شراب السكوتش الفاخر، وأطباق الجراد المقلي المملّح.

تكلّم «صاحب السعادة» وهو يضرب الطاولة بعصًا قصيرة أثناء خطابه:

– لقد عرفت من مصادري السريّة الخاصّة أنّ هناك تعبئة تجري ضدّي لقلب نظام الحكم.

كانت هذه إحدى أساليبه الماكرة لإيهامهم بأنّ لديه جهازًا سريًّا، لا يعلمون عنه شيئًا، مهمّته التجسّس عليهم. هم أيضًا كانوا يعرفون أنّ هذا الجهاز السرّي المزعوم ليس سوى مجموعة من كهنة الصنم «كاتوندا» يستعين القصر بخدماتهم في سرّية تامّة.

تجرّأ على كسر الصمت المأتمي رجل طويل اليدين قصير القدمين – أمّه من قبيلة الأقزام التي تستوطن الغابة الاستوائية – يشغل منصب قائد الشرطة العسكرية، قائلًا:

– هل لدى الفيلد مارشال معلومات محدّدة تقودنا إلى القبض على أعداء الوطن؟

أطرق فخامته مُفكّرًا، وراح يعضّ طرف العصا ويُنشبُ فيها أنيابه الحادّة من دون رحمة. أرسل قائد سلاح الجوّ الأقرع بيوني ماغوغو طرفه إلى صديقه المقرّب القابع في مواجهته، ونطق اسم الكاهن من دون صوت. جاء في ظنّه أنّ أحدًا لن ينتبه إلى فعلته بما أنّه يمضغ لبانة محرّكًا شفتيه طوال الوقت.

أومأ رئيس هيئة الأركان الجنرال دومينيك كامنتو برأسه إيماءة خفيفة ممتنًّا على المعلومة.

فجأة، أرعد فخامته، وقد كفّ عن شروده:

– الانقلابيون ليسوا عشرة ولا مئة ولا ألفًا... إنّهم في الكثرة كعدد الحصى.

أصدر رئيس جهاز الاستخبارات الجنرال ريتشارد كيوانوكا كحّة خفيفة تمهّد لحديثه، تشبه عربة الحراسة المدرّعة التي تتقدّم موكبه في شوارع كمبالا:

– أقترح أن نشكّل فريقًا من أمهر الرماة يتسلّل إلى تنزانيا لاغتيال الخائن أبولو أوبوبوتي... التقارير التي وصلتنا تشير إلى أنه يقوم بنشاطات مشبوهة ضدّ مصلحة الوطن.

حدجه «الحاج الدكتور» بنظرة يتطاير منها اللهب ووجّه إليه سبّابته مهدّدًا، قائلًا:

– ريتشارد... إيّاك أن تذكر هذا الاسم مرّة أخرى... ومن اليوم فصاعدًا، يمنع منعًا باتًّا ذكر اسم الرئيس السابق كتابةً أو شفاهة.

حنا الجنرال ريتشارد رأسه حتى كاد يلامس الطاولة متذلّلًا لمولاه.

تابع فخامته وعيناه تنظران إلى خيالات غير سارّة تجتاح ذهنه رغمًا عنه:

– حشد من الأفنديّة سوف يعبّئ شعبي ضدّي.

هزّ الرجال السبعة رؤوسهم موافقين، وبدا عليهم التلهّف لمعرفة المزيد:

– أعداء الوطن هم بريطانيون في جلد أوغندي.

أفلتتْ ابتسامة ساخرة من وزير الدفاع الجنرال هنري سيستو فضبطه القائد الأعلى للقوّات المسلّحة مُتلبّسًا، وصوّب إليه نظرة حاقدة كطلقة من مسدّس، شعر بها الوزير تثقب فؤاده وتكاد توقفه عن النبض، فسارع إلى تخليص نفسه في دهاء:

– يا آخر ملوك اسكتلندا... عندي فكرة بارعة لنخل الأوغنديين وتمييز الصالح من الطالح.

سكن غضب فخامته حين ناداه الوزير باللقب الأحبّ إلى قلبه، وأصغى إليه في اهتمام وهو يواصل حديثه:

– أقترح أن يتولّى الجنرال ريتشارد فحص أدبار المعارضين السياسيين والمشبوهين الحزبيين والمرتبطين بمنظمات أجنبية والمتعلّمين الذين درسوا في الخارج فحصًا ميكانيكيًّا على يد خبراء... ومن وجدت ماكينته سليمة، فهذا يعني أنّه أوغندي ويطلق سراحه، وأمّا الذي يوجد تلاعب في ماكينته فهذا ليس أوغنديًّا ولن يكون... إنّه بريطاني في جلد أوغندي ويتوجّب إعدامه.

ردّ رئيس جهاز الاستخبارات على اقتراح زميله في طريقة جلفة، واستخدم إشارة غير لائقة، وفي سرعة تطوّرت الأمور بينهما إلى

ملاسنة حامية.

تدخّل فخامته، وسحنته تتلوّن من الغضب مُعاودًا الضرب بعصاه على الطاولة في صورة مزعجة تنبئ بالكرب الذي يتفاقم داخله:

– التعليقات الجانبية ممنوعة... إنّني أُحذّركم من ثورة ستغرق الوطن في الدم... وإذا لم نتدارك الأمور منذ الآن، فإنّ مصيرنا جميعًا هو القتل.

صمت الجنرالات وكفّوا عن الحركة، كأنّ بيضة نيئة انكسرت على البلاط. أشعل فخامته سيجارة وحبس نَفَسَه فترة طويلة، ثم زفر الدخان ببطء وقد احمرّت عيناه، وقال:

– أنتم حفنة من الأغبياء ولا ترون أبعد من أنوفكم.

تغيّر وجه الجنرال فرانك كاتومبا قائد سلاح المدرّعات، وقد بدا له أنّ كلمات السيد الرئيس قد أهانته شخصيًّا، وقال:

– بماذا تأمروننا فخامتكم؟

تنهّد فخامته، ونحّى عصا الماريشالية جانبًا، وقال:

– أخرجوا دفاتركم واكتبوا.

عدّل الرجال السمان جلساتهم المسترخية، وهبّوا إلى أقلامهم ودفاترهم ليدوّنوا. كان الفضول يقفز من عيونهم كجيوش من الدبابير. زمّ فخامته شفتيه وضيّق عينيه حتى بدتا كإبرتين، وأعطى نفسه مهلة للتفكير، ثم مال بجذعه إلى الأمام، قائلًا:

– لا تسمحوا لأحد بأن ينجح ويُحقّق شعبيّة بين الناس... ابحثوا عن الناجحين ودمّروهم... ابحثوا عنهم بين المدنيين والعسكريين... افتحوا عيونكم على المثقّفين، الصحافيين، الرياضيين، الأطبّاء، المهندسين، المحامين، العمّال، الموظّفين، المزارعين، المكنّسين، المعوّقين، الشحّاذين، المجانين، واستثنوا فحسب التجّار والأميين والطبّاخين.

أخذ فخامته استراحةً وهو لاهث الأنفاس، كأنّما ركض مسافة طويلة. أجال بصره بينهم لعلّه يقبض على طيف ابتسامة غادرة أو عضلة تختلج خلسة في وجوههم فلم يمكنه ذلك. كلّهم يعلمون أنّه بدأ حياته طبّاخًا،

وهو تعمّد تذكيرهم بماضيه ليختبر ردّ فعلهم... كانت حيلة شيطانية لكشف الأقنعة لم تؤتِ ثمارها.

رسم الجنرال أفرايم كالاندا قائد قوات الطوارئ علامة استفهام في دفتره، ولكز جاره بمرفقه. توقّف قائد سلاح الجوّ الأقرع عن مضغ اللبانة ونظر في دفتر زميله، ثم كتب فيه «ويسيجيي». وكان هذا اسم الكاهن الذي تسبّب لهم بكلّ هذا العناء.

راقبهم صاحب الفخامة، وهم يكتبون تعليماته. كان يُقلّب البصر فيهم بامتعاض، إذ لم يكن واثقًا في إدراكهم بوضوح جسامةَ الخطر الذي يُحدق بهم. فعزم في نفسه على أن يُعدم واحدًا منهم.

رمى السيجارة على السجّادة الفاخرة وداسها بقدمه، وتابع بنبرة خفيضة تآمرية:

– ابحثوا عنهم في كلّ شبر من بلادي... لا تعتقلوهم ولا تعذّبوهم... يكفي أن تسلّطوا عليهم الفاشلين الذين تمتلئ نفوسهم حسدًا وغيرة وكراهية للناجحين وهم سيتكفّلون بالقضاء عليهم خيرًا منّا... أمّا إذا تمكّن واحد من الإفلات من مستنقع الفاشلين، فعليكم في هذه الحالة أن تتدخّلوا.

قال قائد الشرطة العسكرية الجنرال محمد أفولا الذي يدير ثروات البلاد من وراء الستار:

– نقتله.

أسفر وجه فخامته عن ابتسامة معوجّة عصبية:

– هكذا كان القدماء يفعلون في الأزمنة القديمة ولم يُفلحوا... أنا عندي حيلة أفضل!

اختُتم الاجتماع بإعدام الجنرال الأقرع بيوني ماغوغو قائد سلاح الجوّ برصاصة في الرأس. برّر فخامة الرئيس تصفيته بكراهيته للذين يمضغون اللبان، وأنّه يرى فيهم ميولًا إلى التخنّث.

* * *

درس توني التمثيل والإخراج في الأكاديمية الملكية للفنون المسرحية في لندن، وسطع نجمه في إنكلترا حين أدّى دور عطيل في مسرحيّة شكسبير الذائعة الصيت.

عاد توني مواندا إلى أوغندا، وحصل على وظيفة أستاذ المسرح في جامعة ماكيريري.

قام هذا الشاب العبقري بتكييف مسرحيّة شكسبير «هملت»، وجعلها معاصرة ومناسبة للبيئة المحليّة، وعُرضَت مسرحيّته على خشبة المسرح الوطني الأوغندي، فلقيتْ نجاحًا مذهلًا وأضحت حديث الناس في كمبالا.

قدّم بعدها مسرحيّة «مريض الوهم» لموليير، فحقّق شعبيّة جارفة، وغدا الأوغندي الأكثر شهرة في بلده؛ حتى أنّ أوغنديين مُغالين تجرّأوا على السجود له تعبيرًا عن الإعجاب الشديد بفنّه.

يُقال أنّ السرّ في حباله الصوتية، فصوته جهوري رنّان مثل آلة الكمان.

لكنّ هذا النجاح السريع أصابه بدوار المرتفعات، وأمسى يُعاني جنون الارتياب... زعم أنّه يتلقّى اتّصالات يومية من مجهولين يستهزئون به، وأنّ مجنونًا يظلّ طوال الليل يحوم حول بيته وهو يشتم بألفاظ نابية فلا يدعه ينام دقيقة واحدة. فإذا تنفّس الصباح أتى مجنون آخر صوته أنكر من سابقه يواصل السبّ واللعن.

كذلك ادّعى أن سائق درّاجة نارية يُلاحقه أينما ذهب مقلّدًا صوت منبّه سيارة الإسعاف، الذي لا يطيقه ويثير قشعريرة لاإرادية في جلده، فيضطرّ إلى سدّ أذنيه مُضايقًا من دون قصد من يكون في رفقته.

الحقيقة أنّ أصدقاءه الذين سمعوا ولولة سائق الدرّاجة النارية جزموا بأنّ الصوت الذي يُصدره هو أشدّ شناعة وإثارة للكرب من منبّه سيارة الإسعاف؛ قال أنّهم عرفوا نقطة ضعفه – صوت منبّه سيارة الإسعاف – فاستغلّوها للضغط على أعصابه.

اشتكى أنّه لم يعد في وسعه المشي مرتاحًا في الشوارع، إذ دائمًا ما يسمع أشخاصًا خلفه يُنادونه باسمه، فإذا التفت اختفى المنادي عن

نظره، أو أعطاه ظهره ببساطة.

أخبر بأنّه إن آوى إلى بار أو مقهى ليستجمع شتات نفسه، إذا بنكرات يقعدون إلى طاولة مجاورة لطاولته ويغتابونه من دون ذكره بالاسم، كأن يقول أحدهم: «من أين جلبتم هذا الممثّل الطبل؟». فيردّ عليه الآخر: «من الإسطبل!». ويستغرقون في ضحك مقزّز.

اعتذر المسرح الوطني الأوغندي عن عدم عرض مسرحيّاته بحجّة ازدحام برنامجه بمسرحيّات تحثّ على حبّ الوطن! لجأ إلى مسرح مستقلّ ليعرض مسرحيّاته، فطفحتْ بالوعة المجاري التي تقع قبل مدخل المسرح، وأعاق سيل المياه الوسخة المتدفّقة من دون انقطاع دخول الجمهور، وأزكم أنوفه بروائح نتنة.

وكانت الكهرباء تنطفئ دائمًا قبل عشر دقائق من نهايات مسرحيّاته، فيجنّ جنون الجمهور ويفقد صبره، ويقع طاقم العمل في حرج شديد.

بتبرّعات سخيّة من التجّار المعجبين بموهبته، أنتج مسرحيّة «مسؤول حكومي» التي تتضمّن انتقادات لاذعة لتفشي الفساد في الإدارات الحكومية، وعرضها في مسرح متنقّل – استأجر سيارة نقل مستخدمًا صندوقها الخلفي كخشبة مسرح – فحصد نجاحًا لم يسبق له مثيل، وحضر كلّ عرض من عروضه آلاف المواطنين.

نشرت له صحيفة الغارديان البريطانية مقالة ينتقد فيها غياب الديمقراطية في بلاده، فأتى إليه أحد أبناء عمومته وأنبأه بأنّه تلقّى تهديدًا بالقتل بسبب مقالته، ورجاه ألّا ينشر مقالات معارضة للدولة، وإلّا فإنّ حياة كلّ أقاربه ستكون عرضة للخطر؛ اتّهمه بالأنانية، وبأنّه يسعى إلى بناء مجده الشخصي ولو تطلّب الأمر التضحية بأقاربه وأبيه وأمه! وظلّ ابن عمّه هذا يؤلّب عليه أقاربه وعشيرته حتى خاصموه وقاطعوه.

وكالضباب الذي ينتشر في غفلة، غدت كمبالا ذات التلال السبع تعرف أسرار حياته الشخصية كلّها، ومنها حادثة تعرّضه لاغتصاب جماعي من ثلاثة فتية أكبر منه عمرًا، أمسكوه وهو في طريقه إلى المدرسة، حين كان في الصف الخامس.

ذُكر أنّه في ساعة متأخّرة من الليل، اخترقت رصاصة زجاج نافذة غرفته، واستقرّت في الجدار أعلى ثلاثة أشبار من رأسه، فاتّخذ احتياطه من الطلقات التي استمرّت لياليَ متتالية، في النوم تحت سريره. وأُلقي القبض على المشبوه الذي كان يطلق النار على غرفته، لكنّه فوجئ بعد أيّام بإطلاق سراحه، لأنّه مختلّ عقليًّا، ثم أخذ هذا المختلّ المسلّح يطارده عمليًّا في كلّ مكان يذهب إليه.

تدهورت صحته وفقد نصف وزنه نتيجة التسمّم الغذائي المتكرّر، فصام نهائيًّا عن الأكل والشرب خارج منزله، وصار يرتاب في كلّ شيء يُقدّم إليه ولو كان قرص حلوى أو علكة، متوهّمًا أنّ هناك من يبتغي تسميمه.

كانت هوايته المفضّلة الاستماع للإذاعة الحكومية، لكنّه في الآونة الأخيرة أمسى متيّقنًا أنّ الإذاعة تتكلّم عنه بالغمز واللمز في برامجها اليومية، وتُحلّل شخصيّته تحليلًا نفسيًّا تقنيًّا يقوم به خبراء أجانب، وترصد أقواله وأفعاله في دقّة متناهية!

يومًا بعد يوم، أخذ يهمل العناية بهندامه، وغطّت لحية شعثاء نصف وجهه، وبدأ يتحاور مع نفسه بصوتٍ عالٍ، تارة ينفعل ويشتم، وتارة يرقّ صوته ويقهقه.

صار هيبّيًّا نصف متشرّد، يمضي جلّ وقته هائمًا في الشوارع على غير هدى، حاملًا حاجاته الضرورية في حقيبة معلّقة على ظهره، ورائحة منفّرة تفوح منه بسبب عدم اغتساله.

راح ينام في أماكن لا تخطر على بال، معتقدًا أنّه في هذه المناورة يُضلّل أعداءه فلا يقدرون على أذيّته.

كان إذا صادف موسى حلاقة مرميًّا على قارعة الطريق أخذه وحلق به لحيته غير مبالٍ بالدماء التي تنزّ من وجهه ورقبته؛ لينسى بعد قليل أنّه قد اجتثّها، فيخرج مشطًا صغيرًا من جيبه ويمشّط خدّيه متوهّمًا أنّ لحيته الكثّة لم تبارح وجهه.

فُصِل من الجامعة بعد أن فقد قدرته على التركيز، وغدت محاضراته هذيانًا غير مفهوم للطلّاب، ومُنع من دخولها بسبب الأسمال التي

يرتديها.

صار منبوذًا وجميع أصدقائه يتجنّبونه، وأغلق معارفه أبواب بيوتهم في وجهه. تشتّتت فرقته المسرحيّة، وطردته مسارح المدينة كلّها فلم تعد ترحّب به، وانتهت به الحال إلى النوم تحت السيارات وتسوّل سجائره وشيلينغات يشتري بها ما يسكت معدته، من المارّة.

لكنّ توني مواندا لم تنطفئ فيه جذوة البطل عطيل، فظلّ في ساعات موغلة في الليل يقدّم عرضًا مسرحيًّا مذهلًا منفردًا، قاصدًا أماكن تجمّع المشرّدين الذين صاروا جمهوره السرّي المتواطئ معه.

كان يقدّم لهم فقرات من الكوميديا السوداء، طول الفقرة من عشرين إلى ثلاثين ثانية، ثم يرقص البوولا مدندنًا لحنًا شعبيًّا مدّة عشر ثوانٍ، وخلال هذا الفاصل الراقص يرتجل أهجية سياسية جديدة؛ وهكذا يمضي مستمرًّا في تقديم عرضه قرابة نصف ساعة أو أكثر، ثم يغادر مُخلّفًا وراءه المرح والحبور في تلك النفوس المحطّمة.

وفي ليلة لفّ فيها الضباب الكثيف كمبالا، قرّر رئيس الجمهورية عيدي أمين أن يحضر متخفيًّا في ثياب مهلهلة ليرى ويسمع بنفسه كيف يُمرّغ ذلك الممثل السافل شرفه في الوحل.

في الواحدة بعد منتصف الليل، انضمّ سيادته من دون أن يشعر به أحد إلى الحلقة الضيّقة من النظّارة.

«دوم دوم دددم دوم... ذهب الطبيب الخاصّ وهو إنكليزي شبق ينكح حتى البراغيث التي في سرواله، إلى القصر لإجراء فحوصات طبّية روتينية، فتخيّلوا ما حدث... دوم دوم دددم دوم... كان رئيسنا مخمورًا قد تعتعه السكر، فحسب أنّ طبيبه الخاصّ هو الرئيس الأميركي جيمي كارتر، فخرَّ ساجدًا له متوسّلًا أن يُضاعف المعونة الأميركية لأوغندا... دوم دوم دددم دوم... رفعه الطبيب الأشقر من الأرض وطلب عيّنة من بوله، فقال له الرئيس هل تريدني أن أبول على الشعب يا جيمي لكي تضاعف المعونة؟ لأجل خاطرك سأصدر أمرًا باعتقال المثقّفين وتعذيبهم في السجون... دوم دوم دددم دوم... طلب منه الطبيب الأزرق العينين عيّنة

من برازه، فقال له الرئيس تريدني أن أعمل خرية كبيرة يا جيمي؟ لعينيك سأفصل كلّ موظّف حكومي يرفض أن يُنكح، وسأربط الترقّي في السلم الوظيفي بمقدار إخلاص الموظّف وتفانيه في فتح مؤخّرته... دوم دوم دددم دوم... طلب منه الطبيب الوقح أن يُنزل سرواله وينحني، فجثا السفّاح على ركبتيه واستعطفه، أرجوك يا جيمي أنا لست معتادًا هذه الأشياء، أتوسّل إليك يا جيمي أنا متنازل عن المعونة الأميركية! دوم دوم دددم دوم... لكنّ الطبيب لم يُبالِ بتوسّلاته وأرخى حزام بنطلونه، فبكى الديكتاتور وعرض عليه النوم مع نسائه، فشكره الطبيب على كرمه وأمره بالانحناء... دوم دوم دددم دوم... انحنى رئيسنا ودموعه تنزل على خدّيه كالمطر، وأدخل الطبيب مقياس الحرارة في شرجه، فصاح السفاح يكفي يا جيمي يكفي... أنا ما زلت بكرًا أيّها الكاوبوي! دوم دوم دددم دوم... أخرج ذلك الإنكليزي البارد الأعصاب الترمومتر، وقال ممتاز 38، فقال له الرئيس بربّك يا جيمي إنّه أطول من 40 سنتيمترًا لقد وصل إلى بلعومي! دوم دوم دددم دوم...».

يُقال حتى عيدي أمين لم يتمالك نفسه من الضحك، وعندما انتهى العرض تداعى الجميع إلى قدر يتصاعد منه البخار، وأكلوا بأيديهم الموز المطبوخ «ماتوكي».

انسحب فخامته مقاومًا شرهه، وعاد إلى مقرّ إقامته منشرح الصدر مزهوًّا بنجاحه في تحطيم خصومه.

بعد أسابيع قليلة، وتحديدًا في الثلاثين من أكتوبر من العام 1978، اتخذ عيدي أمين قرارًا بغزو تنزانيا، ومع تصاعد وتيرة القتال ظهرت بوضوح على سيادته أعراض جنون الارتياب، فأعدم خيرة ضبّاطه، وأخذ الشكّ يساوره في كلّ من حوله، ولم يعد يثق بأحد.

ربحت تنزانيا الحرب، واستردّ الأوغنديون بلادهم من قبضة عيدي أمين الذي خسر منصبه، وفرّ إلى المنفى متأبّطًا جنونه المتفاقم.

نجمة بول بوت الضائعة

طارت الصحافية النرويجية سيغريد هاوغسغيرد رغم تحذيرات وزارة خارجية بلدها، إلى البلد الأكثر دموية وجنونًا في العالم!

حطّتْ هذه الإوزّة المهاجرة من حافّة القطب المتجمّد الشمالي وحدها في مطار بوشنتونج، ومعها تأشيرة دخول قانونية، وآلة تسجيل ماركة سوني، وكاميرا تصوير عالية الجودة «كوداك»، وحزمة أوراق وأقلام رصاص، وحقيبة جلدية تحوي ملابس خفيفة ملائمة لطقس كمبوديا المداري الحارّ.

أربعة فنادق متهالكة من بقايا عهد الاستعمار الفرنسي كان مسموحًا لها باستقبال الأجانب. زارتها كلّها ولم يمنحها أيّ منها غرفة، فقد كانت كلّها مشغولة، وتعجّ بثوّار من مختلف أنحاء العالم كأنّها سوق شعبيّة.

حتى سائق التاكسي الكهل جفل، ورفض في صورة قاطعة مقترحها أن يستضيفها في بيته بضع ساعات ريثما يطلع النهار، فكان خيارها المتبقّي هو أن تعترف بفشلها وتطلب منه التوجّه إلى المطار لترحل في أول طائرة مغادرة.

سيغريد شابة متوسّطة القامة، رشيقة القوام، شعرها أشقر عاجي، عيناها فيروزيتان واسعتان، أنفها أقنى، وجهها مربّع، وفمها خمري يقتل ذوي القلوب الضعيفة. وأحد هؤلاء الذين قتلتهم بسحرها هو رئيس تحرير صحيفة «نوريجر» الذي دفع بأريحيّة تكاليف تذاكر الطيران ومصروفاتها

الشخصية لتعدّ تحقيقًا صحافيًّا عن التجربة الثورية الكمبوتشية التي بدأت تفوح منها روائح أزكمت أنوف العالم!

ما كان شيء ليثني فتاة من نسل الفايكنغ، وفي الرابعة والعشرين من عمرها، عن عزمها، ولا حتى التهديد باغتصاب جدّتها المحنّطة في المتحف... طلبت من سائق التاكسي أن يرجع مرّة أخرى إلى نزل «لؤلؤة آسيا» الذي راق لها، وعندما وصلت نقدته أجرته وحملتْ حقيبتها، وقد ارتسم خطّ دقيق مثل إبرة بين حاجبيها.

في بهو الفندق، أعلنت بتفاخر لموظّفي الاستقبال أنّها أتت من أوسلو لإجراء حوار صحافي مع الأخ الرقم واحد الرفيق بول بوت رئيس وزراء كمبوتشيا الديمقراطية.

تجمّد موظّف كمبودي وسيم هنيهة، وفتح عينيه على وسعهما كأنّه يتخيّلها في حضرة القائد، فكفّ عن لامبالاته وابتساماته المترفّعة ووعدها بتوفير غرفة لائقة، وقد ظهرت بشاشة متملّقة ذليلة على محيّاه.

أعلن الموظّف النبأ باللغة الخميرية. فجأة، كأنّهم سمعوا طلقة مدفع، توقّف اللغط وهدأت حركة الحاضرين وركّزوا أنظارهم على الفتاة الشقراء.

المسؤول الحزبي البدين الذي كان يزاحمها بفظاظة، انكمش على نفسه وأنزل مرفقه التي كان يلكزها بها، وتخلّى عن صلفه وغروره وظهرت عليه وداعة تليق بالأطفال!

العامل المكلّف حمل الحقائب الذي كان يجلس شبه مستلقٍ على الأريكة، وقفتْ كلّ شعرة في رأسه وداخل أذنيه وأنفه حين رنّ اسم الرفيق الرقم واحد، فهبّ كالريح ورفع الحقيبة عن الأرض ووقف مشدود القامة، بالعًا من فوره علكة كانت في فمه.

تنفّست سيغريد بارتياح، وبدا لها أنّ الكرة الأرضية التي توقّفت عن الدوران قد عاودت سيرتها الأولى مجرّد أن نطقت الاسم المقدّس. حدّثتْ نفسها: «هنا الكرة الأرضية لا تدور إلا بأمر من بول بوت، إذا قال لها دوري دارت!».

وبما أنّها ورّطت نفسها في هذه المسألة، فقد طلبت في اليوم

التالي مقابلة الأخ الرقم واحد، فكان الجواب أن تنتظر في الفندق إلى حين تصل التعليمات في شأنها.

مكثتْ ثمانية أيّام محتجزة في الفندق تعاني الحرارة الخانقة. أخبرها موظّفو الفندق بأنّ أجهزة التكييف محرّمة لأنّها بدعة رأسمالية الغرض منها نخر قوى المجتمع وحضّه على التهتّك.

وفي صباح اليوم التاسع، اكتشفتْ أنّ الفندق الضخم أُخلِيَ، وأضحتْ النزيلة الوحيدة.

عند الظهيرة، رأت من شرفة غرفتها التي تطلّ على نهر الميكونغ وصول موكب مسلّح من حوالى عشرين سيارة «رينج روفر» أحدث موديلّ.

رنّ هاتف الغرفة، وطلبت منها امرأة إنكليزيّتها ركيكة أن تنزل فورًا إلى بهو الفندق.

في عجل، حشتْ شنطتها النسائية بالمسجّلة وأشرطة كاسيت ولفّة أوراق وعلبة الأقلام وعلّقتها على كتفها، خطفتْ الكاميرا ودلّتها على صدرها وتأكّدت من تجهيزها، شربت قدحين من الماء المثلّج وخرجت.

أخذ المصعد ينزل إلى الأسفل، وأنفاسها تتسارع. تفقّدت هندامها في مرآة المصعد المشروخة، وسوّت خصلات شعرها الكثيف، زرّرتْ فتحة قميصها لتمنع ذوي العيون الضيّقة من التلصّص على نهديها.

اقشعرّ بدنها حين انفتح باب المصعد، ورأت الأخ الرقم واحد واقفًا أمامها ووجهه صارم يليق بصخرة. كان يرتدي بدلة سوداء أنيقة – بدلة ماو الشيوعية – وتحيط به هالة غريبة تترك أثرًا فوريًّا على من يقابله، هي مزيج من الرهبة والإعجاب.

تقدّمتْ نحوه وصافحته، مُعرّفة بنفسها وبغرض مجيئها. لم يُفلت يدها، وأنصت في اهتمام للمترجم. حين أنهتْ كلامها سحبت كفّها بلطف وصمتتْ.

افترَّ ثغره عن ابتسامة تدرّجية، فظهرتْ أسنانه المتراصّة في انتظام

كحرس شرف. لاحظتْ أن تعبيرات وجهه متناقضة، جبينه متغضّن عدائي وفمه يعرض أوسع ابتسامة رأتها في حياتها. تخيّلت أنّ الذكور يبتسمون هكذا في آسيا!

حلّ صمت محرج، فعاودت الحديث عن الصحيفة التي تعمل لديها، وأهمّيتها وكيف أنّ الملك النرويجي يقرأها كلّ صباح وهو يرتشف قهوته... إلخ. ظلّ يحدّق فيها مبهورًا بجمالها ولم يراع آداب الحديث. بغتة، وهي في منتصف جملتها دنا منها، ومرّر كفّيه على شعرها الناعم الغزير ثمّ تحسّس أذنيها، شفتيها، عنقها وكتفيها، نزولًا حتى أصابع رجليها، كأنّه يتأكّد أنّها مخلوقة بشرية وليست ملاكًا هبط من السماء. نطق أخيرًا، وهو يكاد يلتصق بها: «تحوزين ذلك الجمال الإسكندنافي الأسطوري الذي يخلب ألباب الرجال السمر المولودين تحت خطّ الاستواء».

أنصتتْ سيغريد إلى المترجم واكتفتْ بضحكة مجاملة مبتسرة، وأدركتْ أنّها ستواجه اختبارًا عسيرًا.

شبك ذراعه بذراعها، واصطحبها في جولة في ردهات الفندق ومرافقه. قال لها أنّه لم يسبق لمهندس التجربة الثورية أن عمل دليلًا سياحيًّا لأحد باستثنائها. ردّت بديبلوماسية أنّه يمنحها بهذا شرفًا عظيمًا.

سألها وهو ينظّف منخره بخنصره، وهي لازمة لاإرادية لم يتمكّن من الخلاص منها:

– ما رأيكِ في ديكورات الفندق؟

وقبل أن تفتح فمها سارع إلى القول، مزهوًّا:

– أنا صمّمتها.

ردّت سيغريد بتحفّظ:

– جميلة.

هرع بول بوت، رغم عاهة العرج التي يعاني منها، وهو يسحبها خلفه من يدها إلى لوحة مغطّاة:

– عندي لكِ مفاجأة.

شعرت سيغريد بالتوتّر. تابع وهو يُضيّق عينيه:

– أزيحي الستارة.

استجابتْ سيغريد، وبالفعل صعقتها المفاجأة حتى أنّها فغرت فاها وكادت عيناها تخرجان من محجريهما.

ندمت لأنّها أساءت التقدير حين ظنّت أنّ كمبوديا دولة شيوعية متخلّفة لا تملك الإمكانات لزرع كاميرات مراقبة في غرف النوم في الفنادق، فاللوحة التي رُسمتْ بالألوان الزيتية لم تكن سوى بورتريه شخصي لها وهي تضطجع عارية على السرير. فكّرتْ في أنّ عدم وجود التكييف في الغرف، لم يكن سوى حيلة وضيعة لإجبار النزلاء على التعرّي!

راح الأخ الرقم واحد يحدّق فيها بشهوانية، ويقوم بحركة غريبة... كان يمطّ شفته السفلى فتبرز متقوّسة إلى الأمام ويظلّ يمطّها ويمطّها كأنّه يدفع زورقًا حربيًّا في اتّجاه محدّثه.

التصق بها من الجانب، وأمال رأسه على كتفها، وقال:

– سأفشي لكِ سرًّا... أنا رسمت هذه اللوحة... ما رأيك في موهبتي؟

انتبهتْ الصحافية النرويجية إلى أنّه بينما كانت اليد اليمنى لبول بوت تشير إلى اللوحة كانت اليد اليسرى تنزلق بخفّة تحت لباسها الداخلي وتتحسّس حمامتي السلام أسفل ظهرها.

لم تشعر بالإثارة، بل بالاشمئزاز من أصابعه البالغة الطراوة كأنّها مجسّات حيوان بحري رخو يلتصق بجلدها ليسكب إفرازاته.

أخرستْ الصدمة سيغريد فلم تردّ. تابع متجاهلًا جفولها:

– أنا أصلًا رسّام، لكنّني اضطررتُ إلى التضحية بموهبتي من أجل الثورة.

تخلّصتْ منه بلباقة متحجّجة بأنّها تريد التقاط صورة للوحة. رفض السماح لها بالتصوير، وقال أنّه سيأمر بتعليقها في غرفة نومه لكي ينظر إليها عندما يُجامع خليلاته، ثم انفجر ضاحكًا وجاراه المترجم الذي لم يُشرك سيغريد معهما في تلك الطرفة السمجة.

صحبها الأخ الرقم واحد إلى حوض السباحة، وقعدا على كرسيّين

مصنوعين من الخيزران تحت مظلّة من القشّ، ووقف المترجم المنحوس تحت أشعة الشمس خافضًا بصره ورأسه. أشفقت سيغريد عليه، لكنّها لم تجرؤ على فعل شيء من أجله.

خلع بول بوت ثيابه باستثناء سرواله الداخلي وقفز في الماء. عرض عليها أن تشاركه السباحة فرفضت رغم إلحاحه.

راح يلهو ويشدو بصوتٍ عالٍ، مرتاحًا ثم في نهاية الترنيمة كان ينفجر مقهقهًا كأنّه ذو شخصيّتين، الأولى تلقي النكات والأخرى تستلقي على قفاها من شدّة الضحك!

ارتابت إذ سمعته يردّد اسمها، فأشارتْ إلى المترجم أن يدنو منها ويترجم لها ما يقول رئيس الوزراء، تلعثم المترجم الخجول، قال وهو يحكّ أذنه:

– الفاتنة سيغريد أجمل زنبقة في النرويج.

قالت عابسة:

– لكنّني لم أسمعه ينطق اسم النرويج؟

اربدّ وجه المترجم، ولزم الصمت.

أقبل جندي المراسلة، وهو يحمل لها «مايوه» أصفر فاضحًا. غمزها القائد بعينه، فرسمتْ على وجهها ابتسامة مفتعلة وأومأت برأسها أنّها لن تتزحزح عن موقفها أبدًا.

أصدر أمرًا لجندي المراسلة، فوضع المايوه على ذراع كرسيّها ثم انصرف. ناجتْ نفسها «يا له من رجل ثقيل الدم، لا يطاق، لا يطاق دقيقة واحدة، فليكن الربّ في عون الشعب الكمبودي!».

خفية، ضغطتْ زر التسجيل، وغامرت في توثيق دندنة رجل كمبوديا القوي.

بعد نصف ساعة، خرج مهندس التجربة الثورية من المسبح مشعًّا بالسعادة، وعاد ليقعد في جوار سيغريد الدائخة من الحرارة.

أتى غلمان يرتدون البزّات الماوية السوداء بطعام الغداء، وصدحت الإذاعة الداخلية للفندق بالأغاني الوطنية.

أكلتْ سيغريد لقيمات من طبق كروونج – هو مزيج من الأعشاب والتوابل – فلم تستسغ طعمه، وشربت عصير برتقال فيه نكهة مرّة.

بعد أن شبع وتجشّأ، أعطى إشارة فأتت صبية مشدودة العضلات لوحّتها الشمس، وهي تحمل طقم ملابسه. نهض مُسلّمًا نفسه للرفيقة المراهقة التي بادرت إلى خلع سرواله الداخلي وراحت تُلبسه مثل ولد في الثالثة.

ارتبكتْ سيغريد حين رأت مسدّسه مصوّبًا نحوها فأشاحت وجهها. رُفع الطعام، وظهر بول بوت في الزيّ الشعبي المريح: إزار أبيض مُقلّم، وقميص أسود، ووشاح كراما على عاتقه الأيسر.

بدا مختلفًا كليًّا، بل يمكن اعتباره إنسانًا بسيطًا وطيّبًا!

قال مهندس التجربة الثورية:

– سأكشف لكِ سرًّا، لقد وضعتُ سحر محبّة في كأسك.

بدأت معدة سيغريد تقرقر مجرّد سماعها ذلك النبأ المقرف. علّقتْ منزعجة:

– آمل فحسب بأن تكون قواعد النظافة رُوعيت وألّا أتعرض للتسمّم.

سألها مهندس التجربة الثورية، مازحًا:

– والآن... هل تشعرين بدبيب محبّتي في قلبك؟

ردّت، وفمها ممتعض:

– كلا... أشعر بمغص في بطني!

ضحك بول بوت، وربَّت خدّها.

أتى جندي المراسلة بجريدة، أخذها بول بوت وانشغل بتصفّحها. اشرأبّت سيغريد بعنقها وتيّقنت أنّها نسخة من العدد الصادر صباح اليوم من الجريدة النرويجية التي تعمل فيها.

في حركة مسرحيّة، قذف بول بوت ورق أوسلو الفاخر إلى المسبح، متأفّفًا وتكلّم بفرنسيّة جيدة ومفخّمة: «إعلانات إعلانات إعلانات... إنّها جريدة إمبريالية مبتذلة».

تفاجأت سيغريد، ثم تذكّرت أنّه درس في فرنسا. اقترحت إجراء الحوار

بالفرنسية، فوافق وأشار إلى المترجم فانصرف.

أخرجت سيغريد المسجّلة وأظهرتْ تأهّبها لبدء العمل. اشترط مهندس التجربة الثورية بوضوح أن يضاجعها أولًا ثم يعطيها الحوار الذي تريد.

بعد مفاوضات شاقّة وصراع إرادات استمرّ أكثر من ساعة، وافق رئيس الوزراء الصعب المراس على إجراء الحوار أولاً ثم الانتقال إلى السرير. لكنه اشترط أيضًا مقابل تنازله أن تدوّن الحوار على الورق، وأن تعمل وهي ترتدي المايوه الأصفر.

دسّت سيغريد المسجّلة في شنطتها، وخلعت بسرعة ثيابها معطية ظهرها لبول بوت ولبست المايوه المهدى منه.

فتح الأخ الرقم واحد فمه عن آخره وأحسّ برغبة حقيقية في أكلها.

قعدت واضعة رجلًا على رجل، وسألته وشعرها الذهبي يتلاعب به الهواء:

– هل يمكن أن تروي لنا كيف كانت طفولتك؟

شخر بول بوت، مبديًا حنقه من التطفّل على طفولته:

– خاااا! أنتِ لا تعرفين من هو بول بوت... لقد ولدتُ رجلًا ولم تكن لي طفولة على الإطلاق.

تجعّد طرف فم سيغريد، وبعد تلكّؤ، دوّنت إجابته كما هي.

– تُسمّي نفسك قائد التجربة الثورية، ماذا تقصد بالتجربة الثورية؟

تنهّد بول بوت، وظهر عليه بوضوح أنّ سحر المحبّة الذي أعدّه الساحر هونج قد ذاب في كأسه لا في كأس سيغريد، وقال:

– العالم هو الذي يسمّيني قائد التجربة الثورية لا أنا، هذا أولًا. ثانيًا، التجربة تهدف إلى بناء مجتمع شيوعي خالص... لقد ألغتْ منظّمتنا التعامل بالنقود، ونقلنا مليوني شخص من سكّان المدن إلى الريف للعمل في زراعة الأرض... إنّ مجتمعنا اليوم يتكوّن من فلّاحين لا غير... لقد نظّفنا كمبوتشيا الديمقراطية من المثقّفين الذين يستنكفون عن العمل في الحقول من الصباح وحتى غروب الشمس... إنّهم يموتون

كالذباب لعدم تعوّدهم أن يعملوا عملًا حقيقيًّا... ستتحلّلُ جثثهم لتصير سمادًا نافعًا للأرض الكمبوتشية الطاهرة... لقد ألغت المنظّمة التعليم البرجوازي وحوّلت المدارس والجامعات حظائر لتربية الحيوانات النافعة كالخنازير والأبقار والدجاج.

طرحت سيغريد سؤالها، وهي تلوّح بنظّارتها الطبّية:

– أنا أستخدم هذه النظّارة مضطرّة، لأنّني أعاني قصر النظر ومن دونها أصبح عمياء... هل صحيح أنّ المنظّمة تعدم الكمبوتشيين الذين يستخدمون النظّارات؟

أعاد بول بوت تثبيت النظّارة على عيني سيغريد في رقّة فاجأتها، وقال:

– لقد ضعف نظرك بسبب القراءة أليس كذلك؟ لذلك أنتِ مثقّفة! في كمبوتشيا الديمقراطية نحن ننظر إلى المثقّفين بوصفهم عناصر تخريبيّة للمجتمع... إنّهم ثمار عفنة للإمبريالية، وهم في دواخلهم يحقدون على الفلّاح الكمبوتشي الريفي البسيط ويزدرونه... نحن نستدلّ عليهم بواسطة النظّارات... لذلك، أصدرتْ المنظّمة قرارًا بإعدام كلّ من يستخدم نظّارات في كمبوتشيا الديمقراطية.

ضحكتْ سيغريد، ساخرة وسألته:

– هل هذا يعني أنّني معرضة لخطر الإعدام أنا أيضًا يا معالي رئيس الوزراء؟!

جاراها بول بوت بضحكة، مقلّدًا ضحكتها الساخرة، ثم عبس وجهه فجأة، وقال:

– هل هذه نكتة على الطريقة النرويجية؟! عمومًا، لاحظت المنظّمة أنّ النساء الكمبوتشيات اللاتي يستخدمن نظّارات فقدن براءتهنّ وإيمانهنّ بفحولة الرجل الكمبوتشي، وصرن يلهثن وراء الرجال الأجانب... الثقافة خرَّبتْ عقولهنّ فأضحت الواحدة منهنّ تلهثُ وراء الرجل الأجنبي وتعرض نفسها عليه لعلّ وعسى يتنازل عن كبريائه ويقبل مضاجعتها! أما ابن البلد فهي تتأفّف من مضاجعته... اذهبي إلى الريف... ستجدين المرأة

الكمبوتشية على فطرتها، وستخبرك في كلّ فخر بأنّ رجلها الكمبوتشي هو سيد رجال الأرض وأنّها لا ترضى عنه بديلًا.

تلبّد الجوّ بالغيوم، وبدا أنّ السماء ستمطر. شعرتْ سيغريد بالتشوّش رغم أنّها أعدّت الأسئلة جيّدًا. أحسّت بسحر شخصية بول بوت يضغط أعصابها ويوتّرها:

– هل صحيح أنّك حظرت الأديان في كمبوتشيا؟ أليس الإنسان حرًّا في اعتناق العقيدة التي يريد؟

تحفّز بول بوت في جلسته، وتحمّس وقد لاحظ أنّه بدأ يؤثّر فيها، وقال:

– لست أنا من حظرها بل المنظّمة، هذا أولًا. ثانيًا، الأديان هي أكبر مستعبد للإنسان منذ فجر التاريخ... ونحن عندما نحرّر الإنسان الكمبوتشي من الدين، فإنّنا نكون بهذا قد منحناه حرية حقيقية... وهو نفسه سيشكرنا على هذا الأمر في ما بعد.

– هل أُقفِلت المعابد والكنائس والمساجد كلّها؟

– نحن لم نقفلها، نحن حوّلناها مؤسّسات إنتاجية نافعة للمجتمع... بشرفك يا سيغريد، أليس الأفضل أن نستفيد من المعابد في إنتاج البيض، بدلًا من تركها خاوية لا يستفيد منها سوى الربّ؟!

– هناك شائعات بأنّ المواطنين الكمبوتشيين يعانون سوء التغذية؟

– هذه ليست شائعات، بل حقيقة لا أخجل منها، هذا أولًا. ثانيًا، نحن الآن في طريق التحوّل إلى مجتمع زراعيّ مكتفٍ ذاتيًّا، يأكل ممّا يزرع فحسب، فنحن لا نسمح باستيراد أيّ شيء على الإطلاق... وهذا التحوّل من المجتمع العالة على الشعوب الأخرى إلى المجتمع المنتج الذي يأكل من حصاد يديه يتطلّب تضحيات جسامًا وقوة تحمّل عظيمة.

نزلت قطرات مطر خفيفة، كانت تستمرّ لحظات ثم تتوقّف، كأنّها دموع لم تجد من يمسحها فسقطتْ على الأرض.

– لكنّ الناس يموتون جوعًا... ألا تشعرون بتأنيب الضمير؟

انعقد حاجبا بول بوت، وارتفع صوته فاضحًا تسلّطه وصلفه، قائلًا:

– لا يعجبني استخدام الغرب هذه الألاعيب اللفظية كالحرية...

الليبرالية... هذه خزعبلات فلسفية! إنّ دولة كمبوتشيا الديمقراطية لن تركع للغرب... سنقاوم القمح الأميركي الملوّث بالابتزاز ولو متنا جوعًا.

– بمناسبة ذكر الحرية، ما الحرية من وجهة نظرك؟

– الحرية هي عاهرة رخيصة مصابة بالسفلس، والغرب يريد إجبار الشعوب الفقيرة على ممارسة الجنس معها لكي تصاب بالمرض فتنحطّ قواها وتعجز عن إبداء أيّ مقاومة لمشروعها الإمبريالي الهمجي.

– ماذا حقّقت أنت لكمبوتشيا؟

– يكفي أنّني خلّصتها من ألفي عام من اليأس.

– ما الذي تأمل بأن تحقّقه أيضًا خلاف تخليص بلادك من اليأس؟

جفّف عرقه بوشاح كراما، وأخذ هنيهة للتفكير قبل أن يجيب:

– أتمنى أن تعمّم التجربة الثورية الناجحة لكمبوتشيا على جميع دول العالم.

انتفض بدنها لاإراديًّا حين رأت جرذًا يعبر الحديقة، تعرف أنّ الخوف من الجرذان شيء سخيف، لكنّها تحتاج إلى ثانية واحدة ليرسل لها عقلها إشارة طمأنة فتستردّ رباطة جأشها. تابعت طرح أسئلتها:

– هل تطمح إلى قيادة ثورة عالمية؟

– أنا أطمح إلى تخليص فقراء الأرض من اليأس... أنا أفضل من الأنبياء... ماذا فعل الأنبياء سوى جلب المزيد من اليأس إلى العالم؟! أنا سأحرّر العالم في الأرض من اليأس الذي تسبّبتْ فيه الأديان وطفلتها المعاقة أخلاقيًّا المسماة الرأسمالية.

ارتسمت ابتسامة تهكّم على شفتي سيغريد، وقالت:

– إنّ طموحاتك كبيرة جدًّا، لكنّها لا تتناسب مع حجم بلدك الصغير وموارده المتواضعة!

استبدّ السخط ببول بوت، ووضع أصابعه تحت حنكها وأخذ يربّته بعصبية، قائلًا:

– كمبوتشيا في عهدي ستصبح دولة عظمى، وستصدّر التجربة الثورية إلى كلّ مكان في العالم.

أرادتْ أن تطرح المزيد من الأسئلة، لكنّه أخرسها بإشارة حازمة. طقطق بإصبعيه فهرول صبي المراسلة صوبه، تكلّم معه باللغة الخميرية، وهو يرتجف من الغضب.

شعرت سيغريد بالرضا عن نفسها، لقد نالت منه وأخرجته عن طوره! طوت أوراقها ودسّتها في حقيبتها.

قُدِّم للأخ الرقم واحد الشاي والحلويات وأُهمِلت هي تمامًا... كانت هذه إهانة مقصودة.

بعد دقائق، أتى رجل أعور فقد عينه بانفجار لغم، يرتدي الزي الماوي الأسود، أدّى التحية، ووقف في وضع الاستعداد.

التفت إليه بول بوت بعد تجاهل طويل، وقال:

– هذا الأخ خيو أفضل قارئ كفّ في كمبوتشيا... سيقرأ لكِ كفّكِ إذا لم يكن لديكِ مانع.

أعطتْ سيغريد خيو كفّ يدها اليُمنى لقارئ الكف، لكنّ بول بوت تكلّم معه بالخميرية وحرّك يده كمن يكتب، ترك قارئ الكفّ كفّها والتقط كفّ يدها اليسرى. فقد نبّهه إلى أنّها عسراء.

راح ينعم النظر في خطوط كفّها ويتكلّم مع سيده المنصت باهتمام بالغ. لم تكن سيغريد تؤمن بهذه الخرافات، فلم تلقِ بالًا لقارئ الكفّ الذي كان يتصبّب عرقًا، ويبدو وجهه مصفرًّا من الرعب.

رفعتْ رأسها، فأبصرت سربًا من الغربان قد اصطفّ على حوافّ سطح الفندق فانقبض قلبها.

فجأة، تهلّل وجه بول بوت بالسرور، وعلّق على كلام خيو الأعور، تكلّما وهما يشعران بالإثارة... دنا بول بوت وعاين بنفسه النجمة الخماسية الواقعة بين خطي العقل والقلب، فضحك منتشيًا!

انتاب سيغريد الفضول لتعرف ما عثرا عليه في كفّها، وما يعني، لكنّ ظلًّا من الشكّ راودها، وقالت في نفسها أنّ بول بوت يريد خداعها بهذا العرض المسرحي السخيف... ولكن، إلامَ يرمي؟

انصرف خيو الأعور، مبتهجًا بعد أن ربّت الأخ الرقم واحد كتفَه ووعده

بشيء ما.

بعد ذلك، أخذها بول بوت إلى السرير وامضى معها ستّ ساعات. قبَّل كلّ سنتيمتر في جسدها، وبدا لها أنّه لم يعرف امرأة قبلها قطّ، فتذكّرتْ مقته المرأةَ الكمبودية التي تُفضّل الأجانب على أبناء البلد، ورأتْ أنّه نسي أن يُضيف الذكور أيضًا!

عندما نزلا إلى مطعم الفندق لتناول العشاء، وجدت مائدة لا تصدّق في انتظارها: طبق كاتيو الفاخر المكوّن من لحم الخنزير مع شوربة شعيرية الأرز المقلية بالثوم والبصل الأخضر، وطبق أموك المميّز بشرائح السمك المطبوخ بالكاري مع البطاطا والعناكب ويقدّم في أوراق الموز، وحساء الكوبرا، ولحوم غزلان مشوية، وكمّيّات كبيرة من الفاكهة.

حين لاحظ استغرابها من البذخ المفاجئ الذي لا يليق بدولة شيوعية على شفا المجاعة، علّل محرجًا بأنّه يرغب في تعريفها بالمطبخ الكمبوتشي ومأكولاته الشهية المذاق.

طيلة العشاء الذي امتدّ لساعتين، ظلّ يحدّثها، وهو يحتسي النبيذ الصيني، عن تاريخه النضالي ومآثره البطولية، وكيف سبح مرّة في بحيرة تونلي ساب لينقذ كلبًا كاد يغرق، وعن حبّه الشديد للطيور ومنعه حبسها في أقفاص... وعن أوامره للعناية بالقطط المتشرّدة... لكنّه لم يتحدث قطّ عن أنّه أنقذ إنسانًا!

كانت بالكاد تصغي إليه، إذ بعد التجويع الطويل الذي تعرّضت له منذ وصولها إلى بنوم بنه بسبب نظام الحصص الغذائية الفقير الرديئة الطعم، كانت تأكل بنهم شديد.

في اليوم التالي، وهي تتأهّب للسفر، دهم عناصر من الاستخبارات غرفتها، وصادروا جواز سفرها وجهاز التسجيل والكاميرا وأوراقها كلّها... حدث هذا منتصف الظهيرة.

بعد حلول الظلام، سمعت طرقًا خشنًا على باب غرفتها، فتحت الباب فرأت فصيل أفراد مسلّحين يرتدون بزات ماوية سوداء وملامحهم بالغة التجهّم ومخيفة. تلا أكبرهم سنًّا اتّهامًا بالخميرية لم تفهم فحواه، ثم

وضعوا الأغلال في معصميها واقتادوها معصوبة العينين إلى تول سلينغ، أكثر السجون رعبًا في العالم.

وضعتْ في زنزانة انفرادية، ولم تكن تقدر على النوم في الليل بسبب صراخ المعذّبين ونحيبهم، وفي النهار كانت تستيقظ مفزوعة كلّما سمعتْ دويّ رصاص، فتنهمر دموعها متخيّلة أنّ الدور سيحلّ عليها قريبًا لإعدامها.

قدَّرتْ أنّها مكثتْ في الجحيم قرابة العشرين يومًا، إلى أن ظهر بول بوت فجأة في زنزانتها النتنة التي ينتشر العفن الأخضر على جدرانها، وجعلها تنصتُ إلى التسجيل الذي سجّلته له خفية وهو يدندن كلمات غزل فاحشة يخجل حتى الشيطان من التفوّه بها. قال لها أنّ ما قامت به يعدّ عملًا غير أخلاقي وعدائي، وأنّ المنظّمة تتّهمها بالتجسّس على مهندس التجربة الثورية، وقد أصدرت في حقّها حكمًا بالإعدام.

انتظر بول بوت طويلًا ردّ فعلها... أن تركع عند قدميه متوسّلة العفو، أو أن تنفجر باكية ليشفق عليها فيجد فرصته ليظهر بمظهر الإنسان الرحيم الطيب.

لكنّها أظهرتْ صلابة غير متوقّعة، ظلّت صامتة ونظرتها ثابتة إلى الحائط الملوّث بلطخات البراز ووجهها ينضح بالازدراء والمقت.

حين لم يتمكّن بول بوت بكلّ جبروته من كسر إرادتها وحملها على الكلام معه، أحسّ بالمهانة وكاد يصدر أمرًا فوريًّا بإعدامها... تمشّى في زنزانتها جيئة وذهابًا ويداه معقودتان خلف ظهره مُقلِّبًا الأفكار في ذهنه، وشيئًا فشيئًا اعتراه الندم إلى أن فاضت مشاعره، فأطلق زفرة طويلة متقطّعة كأنّما انسكبتْ من روافد عكرة، احتواها بنظرة أخيرة، ثم غادر منكّس الرأس.

بعد ساعات فُتح باب زنزانتها، توقّعتْ أنّ ساعة إعدامها حانتْ، لكنّها نُقِلت معصوبة العينين – من دون أغلال في رسغيها – إلى فيلّا واسعة في إحدى ضواحي بنوم بنه وتحت حراسة مشدّدة.

حين رُفعت الخرقة عن عينيها، رأت الأخ الرقم واحد واقفًا أمامها في

زيه الماوي الأسود الذي يعطيه هيئة كاهن متحمّس للدين الشيوعي. أخبرها بأنّها ستبقى تحت الإقامة الجبرية إلى أن يتمكّن من إقناع المنظّمة بإصدار قرار بالعفو عنها.

سألها ما إذا كانت تحتاج إلى شيء، وهو يتأهّب لركوب سيارته، تكلّمتْ أخيرًا وطلبت غيتارًا.

تحرّك موكبه ولوَّح لها بيده مودّعًا، فشرد نظرها بعيدًا لكيلا تردّ على تحيّته.

في الأيام التالية، حصلتْ على هدايا متنوّعة: غيتار مصنوع في الصين، بن فاخر مستورد من عدن، ملابس تايلندية أنيقة، زجاجات براندي أرمني معتّق، ومحاضرات ماو تسي تونغ مترجمة بالفرنسية، وحزمة كتب عن الاشتراكية الماوية والثورة الشيوعية الصينية. وتسلّمت متعلّقاتها المصادرة باستثناء نقودها وجواز سفرها.

بعد مرور أربعين يومًا، ظهر بول بوت مجدّدًا، وأخبرها بأنّ المنظّمة أصدرت قرارًا بالعفو عنها والسماح لها بمغادرة البلاد... إلّا أنّه يأمل بعد أن أسدى لها هذا المعروف أن تقوم بمهمّة صغيرة خدمة إنسانية للشعب الكمبوتشي.

أصغتْ إليه سيغريد بانتباه ثم أعلنتْ موافقتها... بعد دقائق، استلمتْ جواز سفرها وتذكرة الطائرة والمبلغ المالي الذي صودر منها عند اعتقالها.

ناولها بول بوت شفرة وطلب منها أن تحفظها، ثم تحرق الورقة قبل مغادرتها إلى المطار. سألته لماذا يثق في أنها ستفعل؟ عانقها بول بوت وهمس في أذنها كلمة لم تكن تتوقّعها على الإطلاق.

فارقها وهو يتجنّب أن ترى عينيه الدامعتين.

بعد سبعة أشهر، نشرت صحيفة «نوريجر» النرويجية حواراً مطوّلًا مع رئيس وزراء كمبوتشيا الديمقراطية بول بوت تتصدّره صورة يظهر فيها مبتسمًا كالأطفال التقطتها له سيغريد.

تأخّر نشر الحوار كثيرًا لأنّ السفير الأميركي في أوسلو استغرق وقتًا

طويلًا حتى يحصل على جواب من واشنطن.

كانت الرسالة الشفوية غير الرسمية التي أوصلتها سيغريد إلى السفير الأميركي هي أنّ كمبوتشيا الديمقراطية على استعداد لشنّ حرب على جارتها فيتنام وإسقاط النظام هناك ولكن بشرط، أن تلتزم الولايات المتحدة الأميركية دعم كمبوتشيا اقتصاديًّا وعسكريًّا.

أشرق وجه بول بوت بالسعادة حين تصفّح العدد الذي انتظره منذ شهور، وعثر في ثنايا الحوار على كلمة «أنغكور» وهي اسم مملكة كمبوتشية قديمة حقّقت درجة عالية من التطور والرخاء المادي.

فكّر في أنّ هذا هو الحلّ الوحيد المتاح أمامه للهروب من مشاكله الداخلية التي تزداد تعقيدًا كلّ يوم وتهدّد بفشل التجربة الثورية، وأنّه محظوظ للغاية لأنّ الولايات المتحدة الأميركية المتردّدة في شأن دعمه حسمت موقفها أخيرًا لمصلحته.

وبعد ساعات لا أكثر، غزت قوات كمبوتشيا الديمقراطية فيتنام وتوغّلت في أراضيها، وحقّق جيش الخمير الحمر انتصارات سريعة متلاحقة.

لكنّ الفيتناميين، بعد أن امتصّوا صدمة الهجوم العسكري المباغت، شنّوا هجومًا معاكسًا، وتمكّن جيشهم المدرّب الذي خاض حربًا مع جيش الولايات المتحدة وخرج منها منتصرًا، أن يُلحق هزيمة ساحقة بالخمير الحمر، وتمكّن من احتلال العاصمة بنوم بنه، ونصَّب حكومة شيوعية عميلة له، وانسحب بول بوت مع من بقي معه من الخمير الحمر إلى الأدغال في شمال شرق البلاد.

في يناير 1979، عادت الصحافية سيغريد إلى بنوم بنه، ولم يكن أحد يعلم ما تخطّط له... آخر مرّة شوهدت فيها كانت وهي في رفقة خيو الأعور – قارئ الكفّ – وبعد ذلك، انقطعت أخبارها، ولم يعلم أحد مصيرها حتى اللحظة.

مترجم خورخه فيديلّا

يقع مقهى صوت العدالة في حي ميكروثانتر العريق، الذي يُعدّ بمثابة سُرّة مدينة بوينوس آيرس.

تحبّ العصافير هذا المقهى رغم أنّه غير مسموح لها بالدخول، فتظلّ تنقر بمناقيرها زجاج النوافذ وهي تحدّق بعيونها التي تومض كنجوم سوداء، والفضول يكاد يقتلها لتعرف ما يجري في الداخل.

تمكّن ظلّ غامض ليس لأحدٍ من روّاد المقهى المعتادين، من التسلل بدفع الباب الزجاجي بكتفه، كأنّه يخشى أن يترك خلفه أيّ بصمة قد تدلّ عليه، ونزل بخطوات حذرة إلى الأسفل.

اختار طاولة قاصية ليجلس إليها وظهره إلى الجدار، وكفّه المخبّأة داخل معطفه الطويل الأسود كالليل تتحسّس المسدّس.

كان يحجب نصف وجهه بنظّارة تشبه مغارة مظلمة لكيلا يتعرّف إليه أحد.

في الخارج، كان الجوّ مشرقًا ومعتدلًا، وفي الداخل متقلّبًا وغائمًا وضبابيًّا من دخان السجائر، ويحتاج الآتي توًّا بضع دقائق حتى تتأقلم حاسّة البصر لديه مع الضوء الخافت الذي يتسرّب بشقّ الأنفس من النوافذ العالية.

وعلى عكس توجّسه، لم يحفل أحد بمجيئه، وظلّ الزبائن على حالهم يشربون ويدخّنون ويثرثرون بحماسة كخليّة نحل.

كان التلفزيون شغّالًا ويبثّ تقريرًا إخباريًّا عن لقاء القمّة الذي عُقد بين جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الأميركية وليونيد بريجنيف رئيس الاتحاد السوفياتي.

راقب الوافد الجديد بقلق وعدم ارتياح المصافحة الحارّة بين أقوى كبشين في القطيع البشري وأحسّ بانتفاخ قولونه العصبي.

لاحظَ أنّ الشخص الوحيد الذي كان يتابع التقرير الإخباري في اهتمام هو كهل بدين ذو هيئة أرستقراطية، قابع خلف مكتب مصنوع من خشب لوتشيانو مالو الصلب المضادّ للرصاص، وهو يدخّن في تلذّذ سيجارًا كوبيًّا غالي الثمن.

هناك أسباب كثيرة ليَشْعُرَ بالضغينة تجاه مالك المقهى، منها أنّه يتحدّر من أصول سورية، ومنها ما يحيط به من شكوك حول انتمائه إلى خليّة تخريبيّة شيوعية، لكنّه حين لمح صورة كبيرة مبروزة لرئيس الجمهورية في زيّه العسكري المهيب معلّقة في مقهاه، هدأ حقده بعض الشيء.

فُتحَ باب المطبخ فتصاعدت منه أبخرة حمراء! أقبلتْ نادلة هيفاء ترتدي تنّورة قصيرة مكشكشة بلون الكمّون وتحمل صحنًا ثقيلًا، واتّجهتْ إلى طاولة تعجّ بالصور واللافتات، التفَّتْ حولها عصبة من العجائز العابسات اللاتي لهنّ حواجب معقودة تشي برغبتهنّ الدفينة في الخنق، ووضعتْ في خفّة أكواب المتّة الساخنة.

أول مرّة يراهنّ من مسافة قريبة... جدّات ميدان مايو اللواتي يرفعن صور أولادهنّ وبناتهنّ المفقودين والمفقودات، النساء المتسبّبات في تشويه سمعة البلاد، اللائي ملأ نواحهنّ جرائد العالم، وهنّ يطالبن بالكشف عن مصير أحفادهنّ الذين اختطفوا هم أيضًا.

انتابه نحوهنّ شعور شهواني، ليست شهوة الفرج ولكن شهوة الأمعاء، لقد شمّ رائحة اللحم البقري النيء تفوح من أجسادهنّ المترهّلة.

إلى الطاولة المجاورة لطاولتهن، رسّام شابّ ملتحٍ كان يرسم بقلم

الفحم على بالونات، ثم يعطيها لستّيني أصلع لينفخها، وهذا يناولها لواحدة من النساء المسنّات لتثقبها بدبّوس شعر، فتغمرهم موجة عارمة من الضحك.

نزلت إلى المقهى امرأة في ريعان الشباب، وانضمّتْ إلى طاولة الفنّان والأصلع. سألتهما عمّا يفعلان، فأجاب الستيني الأصلع:

– هو يرسم وجه فيديلّا وأنا أنفخه والجدّات يفجّرنه هاها!

طبعتْ المرأة قبلة ساخنة على خدّ الفنّان الشابّ وتندّرت، قائلة:

– ضع في بالك أنّه مثل الشيطان إذا أكثرتَ من استحضاره فسوف يظهر لك! ثلاثتهم ضحكوا في مرح، وردّ الرسّام القبلة بمثلها.

سحب مالك المقهى قلم الرصاص من خلف أذنه وقرع كأسًا زجاجية ليسترعي الانتباه، وقال:

– أيّها الرفاق لقد حان وقت التسلية.

كفّ الزبائن عن تجاذب أطراف الأحاديث وركّزوا أبصارهم على شاشة التلفاز.

أطلّ المقدّم التلفزيوني في الشاشة بسحنة متجهّمة تثير الرعب كوجه شخص ميت منذ ثلاث سنوات، قائلًا: «تلبيةً لآلاف الاتّصالات الهاتفية التي تلقيناها من المشاهدين، يسرّنا أن نعيد بثّ الخطاب المهمّ لفخامة رئيس الجمهورية الفريق خورخه رافائيل فيديلّا، الذي ألقاه مساء أمس لمناسبة الذكرى الثالثة لثورة إعادة التنظيم الوطني الخالدة».

خبط الستّيني الأصلع الطاولة بيده، نافد الصبر، مخاطبًا مالك المقهى:

– أين المترجم يا سيد حلبي؟!

طقطق مالك المقهى بإصبعيه للنادلة، قائلًا:

– استدعي ريكاردو في سرعة.

فغمزت بعينها وغادرت لاهثة إلى المطبخ.

انبعث النشيد الوطني من التلفاز فتأهّب الوافد ذو النظّارة السوداء للوقوف، لكنّه تدارك نفسه في آخر لحظة، وقد لاحظ أنّ الجمع لا يبالي

ويتابع أحاديثه بالوتيرة نفسها.

عادت النادلة من المطبخ، وهي تسحب خلفها شابًّا وسيمًا طويل القامة، وحين رآه روّاد المقهى داخلًا عليهم هبّوا يصفقّون له وقوفًا وهم يردّدون اسمه، كأنّه ممثّل مسرحي شهير ظهر على خشبة المسرح.

حيَّاهم ريكاردو محرجًا والماء والصابون يقطران من مريلته. وقف الوافد الغامض هو الآخر، وتمايل يمينًا ويسارًا متشوّقًا لرؤية وجه غاسل الكؤوس والأطباق الذي يحظى بتلك الشعبية كلّها.

حملت النادلة التي ضاعف النمش في وجهها جمالها، كرسيًّا ووضعته أمام شاشة التلفزيون. شكرها ريكاردو وقعد عليه، وقام بحركة تساعده على التركيز: راح ينقر بأنامله على حاجبيه والجلد بين عينيه كأنّه يضرب على أزرار آلة كاتبة.

وقف الستّيني الأصلع ودنا من ريكاردو ولوَّح له بيديه، فلما التفتَ إليه، قال له: «يا ولد، نريد ترجمة أمينة، تفضحه على حقيقته، اتفقنا؟». اكتفى ريكاردو بابتسامة واسعة، فانسحب الستّيني الأصلع إلى مقعده وهو يدندن لحن أغنية عودة Volver لكارلوس غارديل التي يتشاءم منها الأرجنتينيون.

ساد الصمت حين ظهر في الشاشة رئيس الجمهورية خورخه فيديلّا، وهو يرتدي بدلة عسكرية ويضع وشاح الجمهورية الأرجنتينية، وصدره مرصّع بالأوسمة، وكتفاه تتباهيان برتبة الفريق، وفي يده عصا الماريشالية القصيرة، وأمامه ميكروفون أسود ضخم كغرمول الحمار.

اصطادته الكاميرا، وهو مسترخٍ على كرسيّه ساهمًا خلف مكتبه الفخم، وسبّابته تحفر في إحدى فتحتي أنفه، ثم وهو يخرجها وينظر بإنعام إلى القذارة، وتنهّده مغتبطًا وهو يمسحها بعمود الميكروفون.

علّقت إحدى جدّات ميدان مايو متقزّزة: «يا للقرف! هل رأيتم كيف يُخرج المخاط من أنفه؟! هذا المخلوق فضيحة حقيقية والمكان المناسب له هو حديقة الحيوانات في قفص القرود!».

قهقه روّاد المقهى في حبور. تكلّم فخامته أخيرًا، وقد عاد من شروده

مشيرًا بعصاه إلى جماهير وهميّة: «أيّها الشعب».
قلّد ريكاردو حركته المتغطرسة وترجم: «أيّها الحمير».
جفل الوافد الغريب، وجحظت عيناه دهشة.
صوت الرئيس: «أيّها الرجال الأرجنتينيون الأبطال».
ريكاردو: «أيّها الرجال الأرجنتينيون الأنذال».
صوت الرئيس: «أيّتها النساء الأرجنتينيات الماجدات».
ريكاردو: «أيّتها النساء الأرجنتينيات السافلات».
لاحظ الوافد الغريب التأثير الفوري لترجمة ريكاردو من خلال الانزعاج الذي بدا على وجوه الرجال وامتعاض الجدّات.
صوت الرئيس: «لمناسبة الذكرى الثالثة لثورتكم العظيمة، ثورة إعادة التنظيم الوطني، عندي لكم مفاجأة سارّة».
ريكاردو: «لمناسبة الذكرى الثالثة لثورتي سوف أخوزقكم بهذا الخبر».
صوت الرئيس: «لقد نجحنا في عقد أضخم صفقة أسلحة في تاريخ الأرجنتين».
ريكاردو: «لقد نجحت في تعزيز سلطتي».
صوت الرئيس: «إنّها لحظة مجيدة في تاريخ شعبنا».
ريكاردو: «إنّها لحظة مجيدة في تاريخي».
صوت الرئيس: «من الآن فصاعدًا، لن تجرؤ أيّ دولة على أن تعتدي عليكم».
ريكاردو: «من الآن فصاعدًا، لن تجرؤوا على معارضتي».
صوت الرئيس: «وأيّ دولة تفكّر في العدوان على بلادنا، أقسم إنّني سأحرق أرضها».
ريكاردو: «أيّ واحد منكم يفكّر في الانقلاب عليّ، أقسم إنّني سأحرق بوينوس آيرس بمن فيها».
ظهرت آثار الصدمة على مالك المقهى، وسقط السيجار من فمه.
صوت الرئيس: «الوطن لن يخضع بعد اليوم للقوى الأجنبية».
ريكاردو: «سيادة الوطن معروضة للبيع في المزاد لمن يدفع السعر

الأعلى».

صوت الرئيس: «سنشتري أحدث الطائرات والدبّابات والبارجات لنحمي حريّتنا واستقلالنا».

ريكاردو: «سأشتري أكثر الأسلحة تطوّرًا لأحمي نفسي منكم».

صوت الرئيس: «الآن، ونحن نمتلك أحدث الأسلحة في العالم، يمكننا أن نستمتع بثمار الديمقراطية».

ريكاردو: «عندما تصبح الأسلحة المتطوّرة في تصرّفي سوف أريكم المعنى الحقيقي للديكتاتورية».

صوت الرئيس: «فلتهنأ أيّها الشعب العظيم بالديمقراطية».

ريكاردو: «فلتهنأ أيّها الشعب المغفّل بحذائي العسكري».

صوت الرئيس: «لقد وعدتكم ببناء الوطن وقد فعلت».

ريكاردو: «لقد وعدتُ زوجتي ببناء قصر فخم لها وقد بنيت».

صوت الرئيس يرتفع صاخبًا من التلفزيون: «الوطن يتّسع للجميع».

ريكاردو: «الوطن لي أنا وحدي».

صوت الرئيس: «أيّ مواطن شريف يمكنه محاسبتي وتوجيه النقد إليّ».

ريكاردو: «أيّ صعلوك نَغِل ينتقدني سأقطع عضوه التناسلي».

حمى الستّيني الأصلع ما بين فخذيه بيديه، وابتلع ريقه متخيّلًا مقصّ أشجار يقطع عضوه، أمّا الوافد الغريب فكان يترنّح إلى الخلف كأنّه يتلقّى لكمات غير مرئية.

صوت الرئيس: «المخلصون للوطن سوف نكافئهم».

ريكاردو: «المخلصون لي شخصيًّا سوف أرقّيهم وأقرّبهم».

صوت الرئيس: «ولأنّنا دولة ديمقراطية، فالمعارضة لها مكان في الوطن».

ريكاردو: «ولأنّ الدولة دولتي، فالمعارضة مكانها الطبيعي هو المعتقل».

صوت الرئيس: «نحن ملتزمون الدفاع عن حرية الرأي والرأي الآخر».

ريكاردو: «سأقتل أيّ تافه لديه رأي يتعارض مع رأيي».

صوت الرئيس: «سأعمل ليل نهار على النهوض باقتصاد الأرجنتين».

ريكاردو: «سأسرق ليل نهار من أموال الدولة، وأحوّلها إلى حساباتي السرّية في سويسرا».

كركر مالك المقهى وارتجّ كرشه، وأنغض الوافد الغريب رأسه بين كتفيه وتمنّى لو تنشقّ الأرض وتبلعه.

صوت الرئيس: «لقد أمرت بإلقاء القبض على التجّار الذين يحتكرون السلع، وزجّهم في السجون».

ريكاردو: «لقد فرضت على التجّار أن يدفعوا لي حصّة أكبر مقابل حمايتي لهم».

صوت الرئيس: «بسبب الإجراءات الاقتصادية الجديدة ستعيشون في رخاء ورفاهية مئة عام مقبلة».

ريكاردو: «سوف أبحث عن عقار يساعد قضيبي على الانتصاب أطول فترة ممكنة».

صوت الرئيس: « سأحارب الفساد».

ريكاردو: «سأشجّع الفساد».

صوت الرئيس: «لا أحد فوق القانون».

ريكاردو: «القانون سأضعه فوق حجري!».

ضحكات ساخرة تتدحرج على أرضية المقهى، ويتناهى صوت الستّيني الأصلع، معلّقًا في مرح: «هذا الرفيق خورخه لديه ميول غلمانية!».

صوت الرئيس: «أنا أحبّكم».

ريكاردو: «أنا أنكح أمّهاتكم».

في تلك الأثناء، كانت الأقدام المدرّبة على الغدر تنزل الدرج في هدوء شديد جدًّا.

صوت الرئيس: «أنا مجرّد خادم لكم».

ريكاردو: «أنا أبول عليكم يا جرذان».

صوت الرئيس: «أنا لا أنام الليل من أجل السهر على رعاية مصالحكم».

ريكاردو: «أنا أسهر الليل بين أحضان العاهرات».

في الأعلى، أُقفل الشارع ومُنعت حركة مرور السيارات والمشاة.

صوت الرئيس: «أعدكم بتحقيق انتصارات عسكرية عظيمة على الأعداء».

ريكاردو: «أعدكم بتحقيق انتصارات عظيمة في الفراش مع العذارى».

صوت الرئيس: «أقسم أنّ أعداء الوطن لن يفلتوا من العقاب».

ريكاردو: «أقسم أنّ الحسناوات لن يفلتن من النوم معي».

نظر ريكاردو بطرف عينه، فلمح الستّيني الأصلع ممدّدًا على الأرض، مسحوبًا

من رجليه. التفت فرأى أنّ مقاعد المقهى قد صارت مشغولة بجنود مدجّجين بالأسلحة، أمّا الزبائن ومالك المقهى فلم يعد لهم أثر. وقف، فإذا وراءه الزبون الغامض وقد أبعد النظّارة الشمسيّة عن عينيه... تجمّد الدم في عروقه، وقد اكتشف أنّه رئيس الجمهورية شخصيًّا.

تفرّس خورخه فيديلّا في انتباه بالغ في ملامح ريكاردو، كأنّه يبحث فيها عن حلٍّ للغز أثار فضوله وحين لم ينجح سأله: «أريد أن أسألك سؤالًا واحدًا قبل أن آمر بإعدامك».

تماوجت طبقة رقيقة من الدموع في عيني ريكاردو، وشعر بأنّ ركبتيه لا تقويان على حمله. واصل رئيس الجمهورية كلامه، واضعًا يده على كتف ريكاردو كأنّه صديق حميم:

– لقد توصّلتَ بصورة صحيحة إلى المعاني التي أقصدها في خطابي... أنّى لك هذه المهارة؟

ردّ ريكاردو، وهو يلاحظ أنّ عددًا من كبار الضبّاط قد أحاط به:

– أنا علّمتُ نفسي بنفسي... أنا أصمّ يا سيدي.

قال فخامته، مبديًا استغرابه:

– أصمّ؟! ولكن هأنتذا تسمعني وتجيبني بصورة صحيحة!

أجابه ريكاردو، وهو يبذل جهدًا خارقًا للسيطرة على ارتجاف صوته:
– بسبب فقداني حاسّة السمع علّمتُ نفسي قراءة الشفاه.
أنزل الرئيس يده، وابتسم ساخرًا:
– مذهل أيّها المخنّث!
احمرّ وجه ريكاردو، وأوشك على البكاء. تابع فخامته ممسّدًا شاربيه الكثّين:
– لقد تلوَّن وجهك... أنت فعلًا تجيد قراءة الشفاه.
دارت أحاديث جانبية بين كبار قادة الجيش وخورخه فيديلّا يتصنّع عدم الإنصات، ويتفادى بصعوبة إدخال إصبعه في أنفه.
انتبه ريكاردو إلى نظراتهم العدائية نحوه، وشعر بأنّه محاصر... ذهب تفكيره في اتّجاه خطّة خيالية للفرار. فجأة، لكزه خورخه فيديلّا بالسبابة في صدره، وقال:
– لكنّ موهبتك تفوق مجرّد ما تنطق به الشفاه، فأنت يا ريكاردو تفهم ما ينطق به القلب، كيف تأتّى لك ذلك؟
تألّم ريكاردو من لكز الرئيس حتى أنّه شعر به في قلبه:
– بالتدرّب، أصبحت عندي مَلَكَة في قراءة ملامح وجه المتكلم، فأدرك المعنى الأصلي للكلمات التي يقولها.
قال الرئيس، وهو يُقرِّب يديه من ريكاردو كأنّه يتوق لاشعوريًّا إلى خدش وجهه بأظافره:
– إذًا، أفهم أنّك لم تولد بهذه العاهة، ولكن أُصبت بها لاحقًا.
أجاب ريكاردو، مرطّبًا بلسانه شفتيه الجافّتين:
– صحيح. كنت أسمع بصورة طبيعية. ولكن، قبل ثلاث سنوات أصبت بالحمّى الشوكية. نجوت من الموت، لكنّني فقدت السمع نهائيًّا، وفي الوقت نفسه اكتشفت موهبتي في فهم النفس البشرية من طريق النظر فحسب إلى شفتي أيّ إنسان ووجهه.
تكلّم ضابط ذو رتبة رفيعة، مشيرًا في انفعال إلى ريكاردو:
– اسمح لي سيدي الرئيس... هذا الرجل يشكّل خطرًا بالغًا على

النظام، ولا بدّ لنا من إعدامه بسرعة.

التفت فخامته إلى ريكاردو، وقد ضيَّق إحدى عينيه:

– ترجم ما قاله وزير الدفاع.

استجاب ريكاردو من دون تلكّؤ كأنّه يثبت للرئيس صحّة كلامه:

– اسمح لي أيّها الخنزير العفن... هذا الصرصار يشكّل خطرًا بالغًا عليّ ولا بد من إعدامه في سرعة.

امتقع وجه وزير الدفاع وبدا عليه الذعر الشديد. سحب خورخه فيديلّا مسدّسه وأطلق رصاصة واحدة على قلب وزير دفاعه، فتهاوى الأخير متخبّطًا في دمائه.

أعاد الرئيس المسدّس إلى جرابه، وخاطب ريكاردو في لهجة رقيقة كأنّه يخاطب طفله:

– أحسنت... ترجمة جيّدة.

أشار فخامته إلى الجنود، فجرّ جنديّان الجثّة من قدميها وأخفياها عن الأنظار.

رشح العرق من جبين ريكاردو وصدغيه، وأخذت أسنانه تصطكّ رعبًا. ارتفع الحاجب الأيمن لفخامته:

– تبدو مرعوبًا بالفعل!

ردّ ريكاردو وقد فقد السيطرة على ارتجاف يديه:

– المعذرة سيدي الرئيس... هذه أول مرّة أشاهد أحدًا يُقتلُ أمامي.

ضحك الرئيس ولاطفه بلكمة خفيفة على بطنه:

– من الآن فصاعدًا، ستكون أنت ملاك الموت في الأرجنتين... بكلمة منك ستنطفئ حياة الخونة.

فتح ريكاردو فمه عن آخره، وتدلّى فكّه الأسفل حتى لامس الأرض رهبة ممّا يُراد منه.

صرخ فخامته، وقد انقلبت ملامحه إلى الغضب:

– اطلبوا من السيدة الأولى أن تنزل من السيارة، وتحضر إلى هنا فورًا.

جثا ريكاردو على ركبته، وتوسّل باكيًا ضامًّا يديه:

– أرجوك سيدي الرئيس، اِعفني من هذه المهمّة.

رفعه خورخه فيديلّا في غلظة ووجّه له صفعة هائلة أسقطته أرضًا. أوقفه الجنود من جديد. سأله الرئيس في هدوء، وقد استعاد السيطرة على غضبه:

– هل تشعر بتحسّن الآن؟

– نعم.

ردّ ريكاردو، وهو لا يجرؤ على مسح خيط من الدم سال من أنفه.

أضاف الرئيس:

– هل تقبل أن تعمل تحت إمرتي مترجمًا؟

نزلت قطرة دم إلى فم ريكاردو:

أقبل في كلّ سرور يا سيدي.

ابتهج الرئيس بردّه، وأخذ يُربّت رأسه... وكانت هذه إشارة سرّية إلى حرّاسه الشخصيين بأنّ هذا الشخص أصبح ينتمي إلى الدائرة الخاصّة المسموح لها بالاقتراب منه.

نزلتْ سيدة البلاد الأولى إلى القبو المستخدم كمقهى، وهي ترفلُ في ثياب أنيقة. تسمَّرتْ في نهاية السلّم، وقد بدا عليها التردّد والخوف من العتمة التي تمسك بخناق المكان.

ناداها خورخه فيديلّا:

– أنا هنا أليسيا. فتقدّمت السيدة في اتّجاهه، وفمها يصطنع ابتسامة مُفرجة عن أسنانها اللؤلؤية.

أشاح ريكاردو بصره إلى شاشة التلفاز، كان خطاب فخامته لا يزال مستمرًّا، وقد بلغ آنذاك أوج انفعاله العصبي مهدّدًا بعصاه: «الويل لمن يخونون الوطن... إنّ جزاء من يخون الوطن هو الموت».

سالت دمعة على خدّ ريكاردو، وقد فهم إلى أين ستذهب الرصاصة.

أحسّ الجنود الذين يخفرون باب المقهى بارتجاج الأرض تحت أقدامهم، أعقب ذلك سماعهم صوت طلقة نارية واحدة.

آخر نكتة عن موغابي

بحجّة الصراع الناشب مع الغرب، وتخوّفه من تصفيته بصواريخ آتية من البحر أو الجوّ، كان رئيس زيمبابوي روبرت موغابي يغادر القصر الرئاسي إلى القاعدة السرّية لقيادة القوات المسلّحة الزيمبابوية التي تبعد عشرين كيلومترًا من العاصمة هراري.

يبدأ يومه مصرّحًا لوسائل الإعلام بتشاؤم سافلة في حقّ زعماء أوروبا وأميركا، ثم يفرّ إلى مخبئه السرّي متوجّسًا من انتقام أولئك الرجال البيض.

لكنّ الحقيقة التي لا يعلمها سوى المقرّبين، أنّه كان يفرّ من زوجته السيدة هالي هايفرون، مصطحبًا معه مديرة مكتبه الشابّة الفاتنة غرايس ماروفو لينعم معها بساعات حبّ طويلة بعيدًا من العيون.

كان المقرّ السرّي لقيادة القوات المسلّحة مجهّزًا بغرفة نوم ملكيّة وحمّام جاكوزي فخم، وهناك كان سيادته يكفّ عن التورية، ويتحوّل من شتم الدول الإمبريالية إلى صبّ اللعنات على السيدة الأولى ووصفها بعبارات غير لائقة.

تابع فخامته مباراة كرة قدم بين فريق مانشيستر سيتي – ناديه الإنكليزي المفضّل – وفريق ليفربول، انتهت بخسارة الأول، فامتلأت عيناه بالدّمع كأنّها خسارة شخصية له.

خرج من غرفة النوم إلى المكتب، ووجهه مأزوم وفمه مسحوب إلى الجانب يشبه خرقة لزجة استخدمت لمسح بلاط متّسخ ومبلّل. لحقت به مساعدته غرايس ماروفو، وهي تدندن وتسوّي ثنيّات سترته التي تجعّدت بسبب جلوسه لمشاهدة المباراة. كان يرتدي بذلة بنّية إنكليزية ماركة «سافيل رو». أمّا ربطة العنق فقد نسيها على السجّادة قرب السرير.

حين رآه وزير الداخلية إدوارد، المنتظر في المكتب منذ ستّ ساعات في هذه الهيئة، بلا ربطة عنق ولا منديل في الجيب العلوي، استنتج أنّ فخامته قد تسلّق الشجرة واقتطف التفّاحة، وربّما استخدمت الفتاة الحسناء التي تلهث خلفه المنديل الأبيض لتجفيف وعائها من العسل.

لاحظ وزير الداخلية أنّ رئيس البلاد الذي ظلّ يحافظ على مظهره الأنيق، كأنّه عضو في مجلس اللوردات البريطاني مدّة عقد ونصف، قد بدأ يهمل هندامه، وتبدو ثيابه واسعة عليه بعض الشيء... لقد فقد كيلوغرامات عدّة من وزنه، ويعود الفضل في رشاقته إلى الغادة التي ترافقه كظلّه... ابتسم، وقال في نفسه: «الآن، فهمت سبب وضع الزعماء مناديل في الجيوب العلوية للمعاطف!».

وجد موغابي التقرير اليومي السرّي الذي تعدّه أجهزة الاستخبارات والداخلية والشعبة الأمنية في حزب «زانو» على مكتبه، هاله عدد الصفحات الذي يربو على ألفي ورقة، فاتّسعت تكشيرته وغطّت مساحة الدولة في أكملها.

عبّ فخامته قدحًا من الكحول ليرفع معنويّاته، وطلب أن تُعدّ له وجبة «السادزا». استأذن الوزير إدوارد للانصراف ليترك الزعيم على راحته، فلم يتلقّ جوابًا، كأنّه لم يتكلّم أصلًا.

كان فخامته مُطرقًا وشاردًا ويداه مضمومتين بين فخذيه، كأنّه لاعب كرة قدم يقف في جدار دفاعي حاميًا رجولته من تسديدة غير مرئية... تكلّم بصوت خفيض مضعضع ونظره إلى الأسفل:

– ما وصلني من نكات يدلّ على أنّ الشعب يعرف بالتفصيل كلّ شيء

عن حياتي وأسراري... بينما أنا تصلني أطنان من التقارير ولا أعرف عنه شيئًا.

أردف، وهو ينظر إلى غرايس وهي إحدى خدعه النفسية المفضّلة:

– لقد طلبتُ منكَ أن تُكتب جميع النكات التي يقولها عني الشعب الزيمبابوي في التقرير اليومي فلماذا لم تفعل؟

احتاج الوزير إدوارد إلى ثانيتين ليدرك أن سيّده كان يُخاطبه هو:

– هذا الشعب الأبله لا يفهم ما أنتم عليه من العظمة والذكاء الفذّ... ولا يدرك أنّكم العبقري الوحيد في العالم الذي يحمل ثماني شهادات دكتوراه.

فجأة، تغيّرت ملامح موغابي من النقيض إلى النقيض وتحوّل من مسكين إلى سكّين، قائلًا:

– أيّها السكّير العفن، افعل ما آمرك به من دون نقاش.

عدّل الوزير إدوارد جلسته المسترخية، وهبّ واقفًا ورأسه يتدلّى على صدره في خضوع، قائلًا:

– اغفر لي يا رئيسي وولي نعمتي هذا التقصير.

امتعض موغابي، وأمر وزيره بالجلوس:

– أنا لا أطلب الكثير يا إدوارد... أنا أطلب الطاعة... الطاعة لا غير.

هزّ الوزير إدوارد رأسه موافقًا، وقد تعرّق جبينه.

تمتم فخامته بصوت لا يُسمع: «هه! حتى العرّافة التي لها وجه سلحفاة عرفت بالأمر قبلي».

قال موغابي، وقد انقلبت سحنته فجأة من الاكفهرار إلى الابتسام:

– هيّا أخبرني أيّها الرجل الأسود الضخم بآخر نكتة قالها الشعب الزيمبابوي الطيب اللطيف المعشر عن الحثالة التي هي أنا.

تنحنح إدوارد، وزاغ نظره:

– آخر نكتة يتداولها الناس في الشارع عن معاليكم هي نكتة التنكة.

قال موغابي في مرح ضامًّا يديه إلى صدره، متوسّلًا كفتاة صغيرة تطلب خدمة:

– أوه لااااا! تبدو نكتة ظريفة... التنكة! أرجوك احكِها لنا بطريقتك الكوميدية النذلة يا إدوارد!

تلوّن وجه إدوارد، وصار سواده أكثر غمقًا:

– إنّها نكتة بذيئة... وليس من اللائق ذكرها في حضور الآنسة غرايس.

ضحك موغابي، وصفّق بكفّيه:

– لاااا... يبدو أنّها تتعلّق بغرايس... إذًا، من الأفضل أن تبقى لتسمع بأذنيها ما يقول الشعب عنها... هذا الشعب الذي كسَّرت رأسي بالحديث عن حقوقه.

خرجت غرايس عن حيادها، وتكلّمت والهلع بادٍ عليها:

– إذا كانت النكتة تذكرني بسوء فأرجو بإخلاص عدم تلويث مسامعنا بها.

نقّل موغابي نظره بخبث بين عشيقته ووزيره وضرب سطح المكتب بغتة بعنف شديد، وقال:

– التنكة!

سرت رعدة خوف في بدن الوزير إدوارد، فانطلق لسانه:

– تقول النكتة أنّ السيد الرئيس اتّخذ سكرتيرته عشيقة له، وأنّ السيدة الأولى للبلاد قد اكتشفت الأمر، وحرصًا على سمعة دولة زيمبابوي ودرءًا للفضائح فقد وافقت على أن تستمرّ علاقته بها بشرط أن تكون المضاجعات في حضورها وهي تحمل معها تنكة، استغرب السيد الرئيس شرطها ولم يعرف سبب استخدامها التنكة، وفي اليوم التالي اجتمع الثلاثة، وطلبت السيدة الأولى أن يمارس الرئيس وعشيقته الجنس واقفين، ولأنّ صاحب الفخامة قصير وعشيقته طويلة فقد طلبت منه الوقوف فوق التنكة، وافق الرئيس على مضض وراح يقوم بواجبه الرئاسي، فلمّا رأته يكزّ أسنانه ووجهه يتشنّج أدركت أنّه على وشك أن يقذف فركلت التنكة ليسقط على الأرض، وفي هذا الإجراء الوقائي ضمنت أنّ سكرتيرته لن تحبل منه.

عقدت غرايس حاجبيها وظهر تعبير حانق على وجهها ولوّحت

بسباباتها في وجه رئيس الجمهورية، مهدّدة:

– إيّاك أن تضحك!

كان موغابي متمالكًا نفسه في صعوبة، وانتفخ وجهه الذابل مثل بالونة، حبس ضحكاته في جوفه، لكنّ مظهر غرايس العابس جعله ينفجر دفعة واحدة مثل بركان، مطلقًا العنان لضحكات موغابية مدويّة تسبّبت تقريبًا في نسف القيمة الشرائية للدولار الزيمبابوي من شدّة قوتها.

صاحت غرايس، وهي تقفز مغتاظة:

– شعب حقير... شعب فاسق!

ثم وهي تخاطب الرئيس:

– شعبك غير مهذّب ولا بدّ أن توقفه عند حدّه يا روبرت... هذا غير مقبول... سمعتي صارت مضغة في الأفواه... أوه أنت مستمتع وتضحك وفخور، لأنّ الشعب يتحدّث عن فحولتك وعن أنّك تنكح امرأتين... شيء مقزّز... لا بدّ أن تضع نهاية لهذا الأمر... إمّا أنا وإمّا هي.

أمسك موغابي فكّها الأسفل بالسبّابة والإبهام، محاولًا السيطرة على هبّتها الغاضبة، وقال:

– غرايس لقد اتّخذت قراري وسأتزوجك... كفّي عن الهياج.

هدأت غرايس، وسألت:

– متى؟

راح موغابي يضرب شفته السفلى بلسانه، ممارسًا لعبة التنس بفمه:

– عندما نحصل أولًا على التنكة!

ركلت غرايس الأرض مغتاظة، وعادت إلى غرفة النوم وصفقت الباب خلفها في عنف.

شيّعها فخامته بضحكات رنانة، وخاطب وزيره:

– أحبّ رؤية وجهها وهي غاضبة... يذكّرني بمؤخرة الملكة إليزابيث الثانية هاها... أليس كذلك؟ أليست ملاحظتي صائبة؟

ردّ الوزير إدوارد متحرّجًا:

– ربّما... رغم أنّه لم يسبق لي أن حظيت بذلك الشرف الرفيع، ولكن أعتقد أنّ الأمر هو كذلك فعلًا!

وجم موغابي فجأة، وزايله مزاجه الرائق وصمت. تكلّم بعد هنيهة:

– هل تعلم أنّ لمس الملكة إليزابيث الثانية يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون؟!

بدأ القلق يساور وزير الداخلية، وهو لا يفهم إلى أين يريد سيده الوصول:

– معلوم... هناك قوانين صارمة في هذا الشأن.

سأله موغابي في براءة:

– هل تعلم العقوبة؟

ازدرد إدوارد ريقه، وهو يلاحظ تغيّرًا في النظرة الآتية من مولاه:

– لا... لا.

كشّر موغابي عن أسنانه:

– أنا أعلم... عقوبة لمس الملكة السجن مدّة عام واحد... عقوبة الصفع السجن مدى الحياة... أمّا عقوبة رؤية مؤخّرتها فهي الإعدام.

شعر الوزير إدوارد بالاختناق، وبأنّه غير قادر على الكلام... ابتسم موغابي وتطلّع إلى وزيره من تحت نظّارته، وهو يحرّك رأسه ذات اليمين وذات الشمال:

– ما رأيك يا إدوارد... هل هذه القوانين عادلة؟

تلجلج وزير الداخلية في الجواب:

– يعني يعني... الإنكليز شعب محافظ ويقدّس الملَكيّة... ولكن ولكن... العقوبة مبالغ فيها من دون شكّ.

شبك فخامة الرئيس أصابعه، وشرع يضرب شفته السفلى بلسانه ضربات سريعة تصدر صوتًا مثيرًا للأعصاب:

– وماذا عنّا نحن... ما العقوبة المناسبة في رأيك؟

ارتجفتْ أضلاع الوزير إدوارد وشعر بقولونه العصبي يؤلمه إلى حدّ أنه تمنّى الموت:

– عقوبة أيّ شيء؟

قال فخامته، وعلى فمه ابتسامة عذبة:

– هل تعلم كم تبلغ قوّتي في الجماع يا إدوارد؟

أخذت أنفاس الوزير تتسارع، وتحوّلت شهيقًا:

– لا.

ردّ فخامته وعيناه تشعّان بالثقة والرضا عن الذات:

– قوّة ألف رجل يا إدوارد... ألف!

جحظتْ عينا وزير الداخلية، ولم تصدّق أذناه ما يسمع فظهر عليه تعبير شخص أصابه الذهول الشديد وقد حدثت أمامه للتوّ معجزة خارقة للطبيعة!

ضحك موغابي:

– ماذا اعتراك؟... كنت أمزح يا رجل.

واستمرّ يضحك ويضحك حتى اصفرَّتْ بشرة وزير الداخلية وخلت عروقه من الدم.

في ساعة متأخّرة من الليل، وهو في طريقه إلى العاصمة هراري، تعرّض وزير الداخلية إدوارد لحادث انقلاب سيارته – مرسيدس بنز – ولقي مصرعه محترقًا مع سائقه ومرافقه الشخصي.

يشاع أنّ أحد القرويين شاهد فخامة الرئيس روبرت موغابي يدنو من السيارة قبل احتراقها، لكنّه لم يتمكّن من سماع الكلمات الأخيرة التي قيلت.

نابليون الصغير

من دون سابق إشعار، قام وزير العدل في اتّحاد جزر القمر العقيد محمد بطَّال بجولة تفتيشية مفاجئة لسجن جزيرة أنجوان في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

تم استدعاء مدير السجن بصورة عاجلة، فأتى نعسانَ يجرجر قدميه، وقد نسي أن يغسل وجهه من القذى العالق في زاويتي عينيه، لكنّه صحا تمامًا حين وجد مشهدًا لا يصدّق في انتظاره... حرّاس السجن أُودعوا خلف القضبان، والسجناء أُفرِج عنهم وسُلِّحوا.

لم تستغرق محاكمة مدير السجن الهزيل البنية الذي نخرت الأمراض جسده سوى دقائق، وفي طقس من الهياج والصخب والصيحات الجنونية شُنِق.

بواسطة اثنين وخمسين سجينًا، تمكّن العقيد المغامر من إحكام سيطرته على ثاني أكبر جزيرة في أرخبيل جزر القمر، بعد أن باغت فجرًا الحامية العسكرية في ميناء موتسامودو، وأعدم ثلاثين ضابطًا وجنديًّا رفضوا الانضمام إليه.

العقيد محمد بطَّال، الذي تلقّى تدريبه على يد الشرطة الفرنسية، وكان معجبًا بنابليون بونابرت، استولى على القصر الرئاسي بعد اشتباكات عنيفة، وأعلن جزيرة أنجوان جمهورية مستقلّة عن جزر القمر، ونصَّبَ نفسه رئيسًا للجمهورية.

وفي عزّ الظهيرة الحارقة، نُفِّذت أوامره بطرد موظّفي الحكومة المركزية – من غير مواطني الجزيرة – ومعهم زوجاتهم وأطفالهم، وشُحِنوا من دون أمتعة أو حتى ملابس تستر عوراتهم إلى موروني عاصمة جزر القمر.

بعد مرور أسبوع، وحين رأى أنّ العالم بأسره لم يخطُ خطوة جادّة لردعه، قرّر فخامته أن يشكّل الحكومة.

نعّم الحلّاق القصير القامة الناحل الذي يعيل ثلاثة عشر طفلًا، ذقن فخامته، وشذّب شاربيه الفاحمي السواد، ثم مسح وجهه ورقبته وأذنيه وقفاه بقطن مبلّل بعطر فرنسي ذي رائحة ذكورية طاغية.

تناول فخامته إفطاره المكوّن من سلطة وفاكهة وشرائح صدر دجاج مطبوخ بزيت الزيتون ونبيذ أبيض، ولحم أخطبوط مسلوق موصوف لتقوية الباه.

بعد أن قضى على المائدة، مسح يديه بمنديل معطّر وتجشّأ بقوّة ثور. تنحنح سكرتيره الشخصي كيبرو، ثم دنا منه وانحنى راكعًا مغاليًا في التذلّل وسأله رأيه في وجبة الإفطار، فأجاب فخامته وقد قطّب جبينه:

– لحم الأخطبوط لا تزال فيه رائحة غير مستساغة.

أجاب السكرتير، وهو يحكّ أنفه:

– مفهوم سيدي الرئيس، سأبعث حالًا مندوبًا من الرئاسة إلى باريس لبحث هذه المشكلة مع الحكومة الفرنسية.

ارتدى فخامته بدلة سوداء وقميصًا أبيض وربطة عنق رمّانية اللون، واعتمر كوفية زنجبارية مشغولة يدويًّا بخيوط ذهبية وبيضاء ذات ثقوب دقيقة.

أعطى المصوّرَ الرئاسي الإذن بالدخول ليلتقط له دستة صور رسمية، لتعميمها على وسائل الإعلام الدولية؛ فظهر فيها رجلًا وسيمًا أسمر في الأربعين من العمر، متوسّط القامة، تشي ملامحه بطموح لا حدود له، وفي عينيه البرّاقتين جنون عظمة سريع الاشتعال.

أُستُدعي المناضلون – السجناء سابقًا – إلى مقرّ إقامته الفخم في

باراكاني، والذي يبعد ثلاثة كيلومترات من مدينة موتسامودو العاصمة الرسمية للجمهورية الحديثة النشأة.

حضر أربعون مناضلًا – قتل منهم اثني عشر شخصًا صباح الانقلاب – وقد لبسوا جميعهم زيًّا موحّدًا، بدلات رصاصية أنيقة مستوردة من باريس.

طلب فخامته إدخالهم للوقوف في حضرته فردًا فردًا. كان سكرتيره كيبرو يحمل كشفًا ويناديهم للدخول. وكان أول من دخل رجل قصير القامة له لحية عريضة وهو يمضغ ابتسامة ماكرة.

– أيها المناضل جيلان أحمدي، ما الجريمة التي أدخلتك السجن؟

– اتّهِمت بسرقة أحذية المصلّين من المساجد.

– وهل التهمة صحيحة؟ لا تخف، قل الحقيقة.

– نعم.

– عظيم أنت يا جيلان، ولأنّك كنت تسرق أحذية المصلّين فقد قرّرت أن أُسند إليك منصبًا يوافق تخصّصك.

التفت فخامته إلى سكرتيره، وقال: «يُعيَّن جيلان أحمدي وزيرًا للشؤون الدينية والفتوى».

انحنى جيلان، وقبّل يدّ الرئيس، وخرج وقد انتفخ زهوًا. أتى بعده فتى ضئيل الحجم وهو يبتلع المخاط إلى جوفه، إذ كان يُعاني سيلانًا مزمنًا.

– ملتانو عيدي، أيّها المناضل الثوري الصلب، ما الجريمة التي أدخلتك السجن؟

– كنت أسرق البنزين من خزّانات السيارات.

– كيف؟

– كنت أُدخل أنبوبًا بلاستيكيًّا في كلّ خزّان، وأُمصّ حتى إذا صعد البنزين إلى فمي، وضعت طرف الأنبوب في عبوّة سعة عشرة لترات.

– مبارك يا ملتانو الحاذق، لقد قرّرت تعيينك وزيرًا للنفط.

انحنى ملتانو وقبَّل يد الرئيس الذي مازحه قائلًا:

– ولكن، إيّاك أن تشفط مخزون الدولة كلّه من البنزين هاها!

خرج ملتانو، والمخاط يسيل من منخريه من شدّة الضحك.

بعده، أقبل رجل يعرج في مشيه ويستند إلى عكّاز، أخرج من جيبه رصاصة وناولها للرئيس.

– الحمدلله على سلامتك يا سامو، قل لي لماذا سُجِنت أيّها البطل؟

– كنت أسرق أسلاك الكهرباء، وأصهرها وأبيعها نحاسًا.

– حيّرتني معك يا سامو، ولا أعرف هل أعيّنك وزيرًا للكهرباء أم وزيرًا للمعادن!

– أُخرِجت الرصاصة من عظم ساقي، لذلك قد أظلّ أعرجَ طوال عمري.

– حسنًا أيّها المغوار، لقد قرّرت تعيينك وزيرًا للكهرباء والمعادن.

أخفض سامو رأسه، وبكى مبديًا شكره العميق، وغادر وهو يمسح دموعه.

تلاه كهل مهيب الطلعة، أشمط، لحيته شهباء، سلَّم على الرئيس رافعًا يديه كأنّه يُكبّر للصلاة.

– مرحبًا بشيخ الشباب، أخبرني يا عثمان نظام لماذا ألقيَ بك في السجن؟

اتّهِمت ظلمًا بالاعتداء على غلام.

– لا أُصدّق أنّ رجلًا صالحًا مثلك يُقدمُ على فعل فاحش كهذا.

– التهمة باطلة تمامًا، لأنّ الغلام هو الذي اعتدى عليّ.

هبّ واقفًا وقد اعترته الدهشة، وقال:

– يا للعار!

– لا لا... فهمتم الموضوع بالمقلوب، أصلًا الغلام ليس فيه شيء من الرجولة.

قعد، وقال:

– إذا كانت هذه حاله، فكيف اعتدى عليك أيّها الشيخ؟

– هجم عليّ في بيتي ليلًا، وهدّدني بخنجر.

– حكايتك مشوّشة قليلًا، ولا أستطيع الحكم عليها، والحقيقة أنّني محتار أيّ وزارة أُسندها إليك.

أدلى السكرتير كيبرو بدلوه:

– أقترح تعيينه وزيرًا للمياه والآبار الجوفيّة والصرف الصحّي.
قال الرئيس:
– موافق يا شيخ الشباب؟
ردّ عثمان وقد انعقد حاجباه:
– هذا الاقتراح مرفوض، لأنّني أستشعر أنّ هناك ربطًا خبيثًا بين اتّهامي بالمثليّة واختياري وزيرًا للمجاري!
غمزه كيبرو:
– يا سيد عثمان، ألا يناسبك أن تحفر الآبار؟
أجابه عثمان بلهجة حادّة:
– كفّ عن تلميحاتك الداعرة يا كيبرو.
ردّ الأخير، منفعلًا هو الآخر:
– أُقسم بحليب أمّي إنّك متورّط.
صفّق الرئيس، محذّرًا:
– كفى مهاترات، سجّل عندك يا كيبرو، يُعيّن عثمان نظام وزيرًا للشباب والرياضة.
حيًّا عثمان الرئيس، وانصرف ولسانه يلهج بالدعاء له.
عقب خروجه، أطلّ رجل مديد القامة، مفتول العضلات، حليق اللحية ورأسه أصلع.
– أهلًا أيّها المناضل الصنديد برمبراس، ما الجريمة التي ارتكبتها؟
– أفطرتُ في نهار رمضان.
– فقط؟
– فقط.
– لعلّك شربت صهريجًا من المياه!
لا يا سيدي الرئيس، شربت قارورة ويسكي فقط.
ردّ الرئيس وهو يُصفِّر إعجابًا:
– يا لها من مأثرة، ويسكي في رمضان؟! يا لك من رجل مقدام! أنت في كلّ حال لست مجرمًا، لذلك لن تنال شرف تعيينك وزيرًا في

حكومتي، ولكن لديّ وظيفة مناسبة لمؤهّلاتك، سوف أعيّنك حارسًا شخصيًّا لي. هيّا اذهب إلى أمين المخازن واستلم منه بزّة عسكريّة فاخرة، ثم تعال، وخذ مكانك ورائي.

انصرف برمبراس في خطوات سعيدة، وكيبرو يُشيّعه بنظرات حاسدة.

وجاء رجل كرشه متدلٍّ.

– يا عبدالله سعيد... لا اسمك ولا شكلك يوحيان بأنّك مجرم.

– سُجِنت ظلمًا يا حبيب الشعب.

– ما الذي حصل؟

– كنت أعمل طبّاخًا في ملجأ للأيتام، وقد اتُهِمت بأنّني آكل اللحم وأعطي العظام للصغار.

– يا له من أفّاق مَن اتّهمك!... أنت تبدو والله مصابًا بفقر الدم، فكيف أُصدِّق أنّك كنت تأكل طعام الأيتام!

– أكرمك الله يا حبيب الشعب، وأنا أنتهز هذه الفرصة لأطالب بردّ اعتباري.

– أبشر أيّها المناضل الباسل، أنا أُعلنُ براءتك من التهمة، وأُعيّنك وزيرًا للشؤون الاجتماعية والعمل.

أمسك عبدالله يد الرئيس وقبّلها مرّات كثيرة وفي سرعة عجيبة، ومازحه الرئيس قائلًا:

– عندما يكبر اليتامى المساكين، سيجدونك في انتظارهم هاها!

خرج عبدالله وسنّه تضحك من خفّة دم الرئيس.

دخل بعده رجل وقور بيده مسبحة وفي جبينه زبيبة الصلاة.

– ما سبب دخولك السجن، أيّها المناضل المبجّل حامد؟

– اتّهِمت بالتزوير.

– ماذا كنت تزوّر؟

– كنت أزوّر الأختام الرسمية ووثائق ملكيّة الأراضي والشهادات الدراسيّة.

– حبيب قلبي حامد، أنت تمتلك فنًّا من أرقى الفنون، وبيدك صنعة

مفيدة للدولة، حتى هيئتك تدلّ على أنّك معلّم ومربٍّ فاضل للأجيال، لذلك قرّرت تعيينك وزيرًا للتربية والتعليم.

انحنى حامد، ولثم يد الرئيس وخرج متراجعًا إلى الوراء لكيلا يعطي ظهره لفخامته... في حقيقة الأمر، كان قد أفلت ريحًا عندما انحنى فلم يجد بدًّا من الخروج في هذه الطريقة.

في صعوبة، نفذ من الباب شابّ ضخم الجثّة له حاجبان أعوجان كأنّهما منجلان.

– المناضل العظيم بيمبا، من الواضح أنّك مجرم أبًّا عن جدّ، سحنتك المفزعة وحدها هي مصدر إلهام لكلّ خارج على القانون... ما تخصّصك الإجرامي؟

– القتل.

– آه... مذهل! صدّقني يا بيمبا أنت رجل طيّب القلب، وقلبك أطهر من قلب ملاك، لذلك قرّرت تعيينك وزيرًا لحقوق الإنسان.

بعد خروجه، علّق فخامته:

– إنّه عصفور كبير الحجم نوعًا ما، لكنّه ينضح بالرحمة والإنسانية أليس كذلك!

ضحك كيبرو ونادى الاسم التالي، فدخل واحد أضخم من سابقه، وقد تعمّد أن يرجّ الأرض بقدميه اعتدادًا بقوّته الهائلة.

– أيّها المناضل الثوري الكبير نكوندا، لماذا دخلت السجن؟

– اتّهِمت باغتصاب ثمانين امرأة.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، أنت حمل وديع ويلصقون بك هذه التهمة الفظيعة!

– إي والله أنا إنسان ضعيف ومسالم، والثمانون امرأة هنّ اللائي اغتصبنني هيء هيء!

– كفكف دموعك يا نكوندا، حتى النبي يوسف وقع في المشكلة نفسها مع النساء. حسنًا، لقد قرّرت تعيينك وزيرًا لشؤون المرأة.

– كنت أرجو يا سيدي الرئيس أن تتكرّم عليّ بوزارة الخارجية.

– لا يا نكوندا، أخشى أن تغتصبك النساء في الخارج، وحينئذٍ ستُلحقُ العار بسمعة الوطن!

خرج نكوندا متنكّدًا واصطدم ببرمبراس، الذي عاد وقد ارتدى بزّة عسكرية أنيقة وعلق مسدّسًا في حزامه؛ وقف وقفة الاستعداد وأدّى التحية العسكرية للرئيس، ثم اتّخذ مكانه خلف كرسيّه المُذهّب.

نادى كيبرو الاسم التالي، فدخل رجل بطين عيناه تتوقدّان فطنة، انحنى ضامًّا يديه إلى صدره.

– أهلًا أيّها المناضل الجسور أناند، هل تتذكّر جريمتك؟

– زُعِم أنّني تزعّمتُ عصابة لسرقة السيارات وتشليحها.

– مبارك يا أخي أناند، لقد قرّرت تعيينك وزيرًا للصناعة.

انحنى أناند طويلًا تعبيرًا عن امتنانه وخرج متهلّلًا. التفت فخامته إلى حارسه الشخصي، وقال:

– كما ترى يا برمبراس نحن نعمل في سياسة الرجل المناسب في المكان المناسب هاها!

لم يضحك برمبراس على طرفة الرئيس، وردّ وهو محافظ على وقفته المتصلبة:

– وفقّكم الله سيدي الرئيس.

وبينما كان يهزّ كتفيه، دخل رجل معتدّ بنفسه، ولم ينتبه إلى أنّ ربطة عنقه انزلقت إلى وراء ظهره.

– أيّها الثائر الجبّار جوهر، أيّ جريمة أودت بك إلى السجن؟

– قبل الثورة المباركة، كنت أشتغل في التهريب.

– ومن أين كنت تأتي بالبضائع المهرّبة؟

– من موزامبيق، تنزانيا، جنوب أفريقيا ومدغشقر.

– من الواضح أنّ لك علاقات دولية وطيدة، لذلك قرّرت تعيينك وزيرًا للخارجية.

انحنى جوهر، وقبّل يدَ فخامته وسارع إلى الخروج، ثم هرع في اتّجاه دورة المياه ليتقيّأ، فقد كانت يد فخامته لزجة ورائحتها كريهة من لعاب

الذين سبقوه.
دخل بعده شيخ شعره أبيض خشن.
– مرحبًا ديزموند حكيم الثورة، أيّ شيء قادك إلى السجن؟
– شيء تافه، كنت أتزعّم عصابة لترويج المخدّرات.
– يبدو لي أنّك مهتمّ بصحّة الإنسان، لذلك قرّرت تعيينك وزيرًا للصحّة.
تلاه شابّ وسيم شعره الحريري يضرب إلى كتفيه.
– المناضل الذي لا يهاب الموت توتو نعيم، أخبرني لو سمحت عن سبب دخولك السجن.
– أنا لست سجينًا، لكنّ السجناء هم الذين يطلبونني.
قال الرئيس مخاطبًا حارسه الشخصي:
– ماذا يقول هذا المائع؟
أجابه برمبراس:
– كلامه صحيح سيدي الرئيس، إنّه يدخل السجن في الليل للترفيه عن السجناء، وفي الصباح يخرج، هكذا كان يكسب رزقه.
قال الرئيس:
– ونحن عندما اقتحمنا السجن في الليل أجبرناه على القتال معنا ولم ننتبه إلى وضعه الخاصّ!
التفت فخامته إلى توتو وهو يقهقه:
– هاها... مصادفة يا توتو، أصبحت أحد قادة الثورة هاها.
ضحك توتو حتى أوجعه بطنه:
– هاهاها... شيء عجيب... ساحرة مالاغاشية تنبّأت لي بأنّ مؤخرتي مباركة، لذلك صار جميع السجناء الذين تباركوا بها وزراء!
نظر إليه الرئيس شزرًا وحذّره:
– من الآن فصاعدًا، لا تسمح لأحد أيًّا كان أن يتبارك بها... أنت الآن محسوب على مناضلي الثورة الأشاوس، والمناضل لا شيء خلفه إلّا الثورة.
ابتسم توتو خجلًا، وقال:

– المعذرة! ولكن، إذا لم أجلس على شيء فإنّني سأستقيل من النضال!

قال الرئيس:

لا تقلق يا توتو، ستجلس على كرسي الوزارة.

سأل توتو:

– أيّ وزارة؟

تحسّس الرئيس تفّاحة آدم في حلقه:

– بما أنّك كنت في الماضي تعمل في الترفيه والتسلية، فإنّني قرّرت تعيينك وزيرًا للإعلام والناطق الرسمي باسم الحكومة.

ضحك توتو حتى فقد السيطرة على نفسه، ووقع على الأرض. سأله الرئيس وقد ارتفع حاجبه الأيسر:

– ما الذي يضحكك يا توتو؟

بعد حين، استردّ توتو أنفاسه، وأجاب:

– ما أضحكني سيدي الرئيس، هو أنّني قبل الثورة كنت أجني رزقي من تحت، وبعد قيام الثورة سوف أجني رزقي من فوق!

خرج توتو، وهو يرقص ويهزّ ردفيه فاستولى الضحك مجدّدًا على الرئيس. ثم تجهّم الجميع حين دخل رجل أحدب كأنّه يحمل جوالًا فوق ظهره.

– أيّ جريمة اقترفت يا كاتومبي زاما الموقّر؟

– أقسم بكعبة المسلمين إنّني مظلوم.

– أعرف أنّك مظلوم، لكنّني أريد أن أعرف لماذا وجدناك في السجن ليلة الثورة؟

– كلّما حبلت امرأة ليس لها زوج، أمسكني أهل هذه الجزيرة المنكودة من أذني وألقوني في السجن.

– وكم عدد الأبناء غير الشرعيين المنسوبين إليك؟

– لن تصدّق إن أخبرتك! حوالى خمسين ولدًا وبنتًا.

– يا ربّاه!... أنت فحل حقيقي يا كاتومبي!

– آه ليت هذا الزعم صحيح، لكنّ الحقيقة أنّني فاقد آلة الذكورة.
– وأين فقدتها؟ هل سُرقتْ منك في السوق؟
– كلّا يا قائدنا، القصّة في اختصار، أنّني أيّام الدراسة الثانوية، تشاجرت مع صبي من جزيرة موهيلي، واستخدم موسى الحلاقة لقطع آلة ذكورتي.
– أها فهمت، لأجل هذا تدَّعي عليك النساء ويزعمن أنّك والد أطفالهنّ، للتغطية على عشّاقهنّ.
– الرجال كافّة يعلمون أنّني مخصي، ومع ذلك يلبسونني التهم تجنّبًا للفضائح والانتقام.
– خسارة يا كاتومبي، حسبتك هنيهة أعظم تيس في جزر المحيط الهندي، ولكن بما أنّك مخصي وهُزأة في نظر المجتمع، فقد قرّرت تعيينك وزيرًا للدفاع.
بعد خروجه، خاطب فخامته سكرتيره كيبرو:
– احرص على ألّا يعلم الأعداء أنّ وزير دفاعنا مخصي... سيظلّ هذا الموضوع من الأسرار العسكرية الممنوع إفشاؤها.
دخل رجل أعور قويّ البنية بين عينيه شجَّة.
– عبد القادر توروك، رجل في مثل شجاعتك النادرة لن يُسجن من أجل أمر هَيِّن أليس كذلك؟
– الحقيقة أيّها الزعيم أنّني كنت قرصانًا أنهبُ قوارب الصيّادين وأسطو على بواخر التجّار.
– أنت فارس جريء، ولديك خبرة عظيمة في مختلف أنواع البضائع، لذلك قرّرتُ تعيينك وزيرًا للاقتصاد والتجارة.
عقب خروجه، دخل رجل طويل الوجه لحيته خفيفة متناثرة وعيناه غائرتان في محجريهما.
– زميلي الطيب الثائر موسى جمال الدين، هل أستطيع أن أعرف سبب دخولك السجن؟
– اتّهِمت بنشل أموال الناس في الأسواق.

– إذًا، أنت أستاذ في فنّ النشل، تنشل الفرنكات من جيوب المواطنين وهم لا يشعرون، وتقديرًا لمهارتك وعبقريّتك في النشل، فقد قرّرتُ تعيينك وزيرًا للمال.

بعد خروجه، دخل رجل رشيق القدّ عريض المنكبين يضع نظّارة سوداء على عينيه.

– أخي في النضال بول غامي، لماذا دخلت السجن؟

– اتُّهِمتُ بالسطو على المنازل.

– ماذا كنت تسرق؟ النقود؟ الذهب؟ الطعام؟

– كنت إذا دخلتُ بيتًا أسرق كلّ شيء، الأجهزة الكهربائية، الأثاث، وحتى الأبواب والشبابيك، ولا أترك خلفي لأصحاب البيت سوى الغبار.

– حبيبي غامي، أنت وغد حقيقي، ولديك القدرة على دخول أيّ بيت، لذلك قرّرتُ تعيينك وزيرًا للداخلية.

دخل بعده رجل بدين عليه أمارات النعمة.

– المناضل المُفَوَّه علي أميري، لقد أبليتَ بلاءً حسنًا في إقناع جنود الحامية بالانضمام إلى الثورة، ولكن ما لست أفهمه كيف أنّ قاضيًا مهمّته إرسال المجرمين إلى السجن أُدخل هو السجن؟

– الحسد يا قائد الثورة، لقد حسدني أعدائي على مكانتي الرفيعة، فتآمروا عليّ ووضعوني في السجن.

– بأيّ تهمة؟

– تقاضي الرشوة.

– يا لهم من حقراء! وكم كنت تتقاضى عادة؟

– مبالغ تافهة لا تكاد تذكر، تتراوح بين ألف وعشرة آلاف فرنك قمري.

– أخي الغالي، أنت فعلًا إنسان نزيه وضميرك نقي، لذلك قرّرتُ تعيينك وزيرًا للتدريب والتأهيل.

– عفوًا يا قائد الثورة، كنت أتمنّى أن تُعيّنني وزيرًا للعدل.

– أنت لا علاقة لك بالعدل، اِنس أنّك قاض، أنت حباك الله موهبة فطرية في الرشوة، لذا أريد منك أن تدرّب الشباب على البراعة والحذق في

تعاطي الرشوة، أريدك أن تُخرّج أجيالًا من المرتشين وبشهادات عليها ختمك يا معالي الوزير.

– أُبشّرك يا قائد الثورة، بعد عام واحد فقط، ستحضر حفل تخرّج الدفعة الأولى.

دخل بعده رجل متوسّط القامة، قوي كالثور، شارباه الطويلان يصلان إلى وجنتيه، له مهابة لا تُخطئها العين.

– الثائر الشجاع مهوداس انجايا، لماذا دخلت السجن؟

– غُضِب عليّ لأنّني شكّلتُ عصابة مسلّحة لأخذ الإتاوات.

– كنت تأخذ إتاوات من التجّار الميسورين، وهذا فعل حسن لا يترتّب عليه أيّ ضرر.

– للأمانة، لم أُفرّق بين غني وفقير، الجميع يدفع، حتى الشحّاذين الذين يطوفون الشوارع وليس عليهم سوى الأسمال، كنت أُلزمهم دفع الإتاوة.

– ما شاء الله عليك، أنت رجل عادل، تحترم الشرف والناموس، لذلك قرّرتُ تعيينك وزيرًا للعدل.

خرج مهوداس، وقد ازداد طول شاربيه سنتيمترات عدّة! دخل رجل قصير القامة، محشو بالدهن كأنّه جوال أرزّ، دميم الوجه، نظره لا يستقرّ على شيء، ورعشات عصبية تهزّ بدنه، وطوال الوقت يتمتم كلمات غير مفهومة.

– المناضل الصنديد ساليمو كيمارا، لماذا أُدخِلت السجن لا مصحّة؟

– زُعِمَ يا سيد الناس، أنّني مشعوذ.

– أيّ نوع من الشعوذة؟

– كنت أتكلّم مع الجنّ، وأُسخّره لقضاء حوائج الناس.

– دعك من الكلام الفارغ، ماذا كنت تفعل بالضبط؟

– كنت أصنع سحرًا يجعل العاقل مجنونًا، والذكي بليدًا، والنشيط خاملًا، والطيب شرّيرًا، والأمين خائنًا.

– وماذا أيضًا؟

– وكنت أسحر الرجال والنساء، فأجعل المرأة تكره زوجها، والابن يكره أباه وأمّه، والأخ يكره أخاه، والجار يكره جيرانه، والصاحب يكره أصحابه.

وقف الرئيس، وقد بدا السرور البالغ على وجهه:

– الله أكبر!... أنت والله الرجل الذي أبحث عنه بالسراج، لأنّني محتاج إلى نشر ثقافة الكراهية بين الناس، ولأنّني أريد أن يشعر كلّ مواطن بأنّ كلّ من حوله عدوّ يتربّص به، أريد لشعبي أن يتربّى على هذه الثقافة الفظيعة، حبيب قلبي ساليمو نظرًا إلى قدرتك الخارقة على تثقيف الشعب ثقافة المالنخوليا والغباء والخمول والشرّ والشكّ والخيانة والبغضاء، فقد قرّرت تعيينك وزيرًا للثقافة.

راح فخامته يذرع مكتبه، وأعصابه مستثارة من السعادة.

ثم دخل عليه شخص اسمه بارني كارتالا، وصرّح بأنّه سُجِن لأنّه قوّاد. قال له الرئيس:

– حقًّا، أنت عالم جهبذ ونظرًا إلى خبرتك وتضلّعك في هذه الشؤون الاستراتيجيّة، فقد قرّرتُ تعيينك نائبًا للرئيس، ومن الآن فصاعدًا عليك أن تُلازمني، خصوصًا في الليل!

مكث بارني كارتالا في المكتب في جوار كيبرو. ودخل رجل ناصيته صلعاء، وعلى عينيه نظّارة طبّية سميكة. وقبل أن يذكر اسمه عاجله الرئيس، ممتعضًا:

– تبدو لي مثقّفًا، أنا أكره المثقّفين.

ضحك الرجل ساخرًا، وقال:

– لا تغرّك المظاهر.

سأله الرئيس عن اسمه، فأجاب:

– كوكان ظلام المكان.

انفرجتْ أسارير فخامته:

– اسم جميل، وله جرس عذب على الأذن، أخبرني بجريمتك. تلكّأ كوكان في الجواب، ثم طلب أن يخبره وحده. أمر فخامته رجاله بإخلاء المكتب. وعندما صارا وحدهما أقرَّ كوكان بأنّه عميل سرّي للاستخبارات

الفرنسية والأميركية والبريطانية، ومتعاون مع الاستخبارات الروسية والإيرانية والكورية الشمالية، ومتطوّع من دون أجر مع الاستخبارات الهندية والباكستانية والجنوب أفريقية والمدغشقرية والمالطية، وله علاقات طيّبة مع المافيا الإيطالية والتنظيم الدولي للمتاجرة بأعضاء البشر.

احتضنه الرئيس في حرارة، وأخبره بأنّه قرّر تعيينه رئيسًا للوزراء. قال له حرفيًّا:

– معك يا كوكان، سيكون البلد في أيادٍ أمينة!

في اليوم التالي، عقد فخامته أول اجتماع لمجلس الوزراء. وكان البند الأول المطروح على جدول أعمال الحكومة هو شراء قنبلة نووية.

اقترح كاتومبي زاما وزير الدفاع شراء القنبلة النووية من الولايات المتحدة الأميركية.

قال فخامته، ممتعضًا:

– أميركا... ممكن أن توافق على بيعنا القنبلة إذا دفعنا مبلغًا ضخمًا، لكنّ مشكلة الأميركيين أنّهم يبيعونك السلاح، ولا يسمحون لك باستخدامه!

علّق وزير المال موسى جمال الدين:

– صدقت سيدي الرئيس، فأغلبية الدول تشتري منهم الأسلحة للزينة والتباهي فحسب.

اقترح جان بيار بيمبا وزير حقوق الإنسان شراء القنبلة من روسيا، أسند فخامته ذقنه إلى يده:

– الروس نصّابون، يأخذون منك المال ويعطونك سلاحًا معطوبًا، أسطوانة الغاز في مطبخك يا بيمبا تحدث انفجارًا أعظم من قنابلهم.

تكلّم مهوداس انجايا وزير العدل، وفمه أحمر من التنبك:

– سيدي الرئيس، في مدينة بيشاور الباكستانية سوق شعبية شهيرة يُباع فيها كلّ شيء يخطر في بال الإنسان، من بيضة الديك إلى القنابل النووية المصغّرة المخبّأة في حقائب سوداء.

نظر فخامته إلى رئيس الوزراء، وقال:

– هل هذا صحيح يا كوكان؟

أجاب كوكان:

– أجل صحيح، من الممكن شراء قنابل نووية عدّة من الأسواق الشعبية في باكستان، إنّها متوفّرة أكثر من البطّيخ.

رفع فخامته حاجبيه، وبرقت عيناه:

– إذًا، ماذا تنتظر يا كوكان؟ هيا، خذ حقيبتك واتّجه إلى المطار.

عدَّل كوكان نظّارته الطبّية بعصبية، قائلًا:

– عفوًا سيدي الرئيس، إنّ مقامي كرئيس وزراء لا يسمح لي بروتوكوليًّا بأن أنزل إلى الأسواق الشعبية.

قال نائب الرئيس بارني كارتالا:

– ما هذه الوقاحة يا كوكان... كيف تجرؤ على معارضة الرغبات السامية لسيد البحر والبر؟ قال فخامته:

– كلا يا بارني، كوكان معه حقّ، الموضوع أدنى من مستواه، لذا يمكنه أن يُرشّح أحد موظّفيه لإنجاز هذه المهمّة.

قال كوكان، وهو ينظر من تحت إلى تحت، وجفناه يطرفان:

– أقترح سيدي الرئيس، أن نرسل نائبكم الموقّر بارني كارتالا إلى بيشاور، وبما أنّه كان قوّادًا في الماضي ولديه حاسّة لا تُخطئ في العثور على القحاب، فأعتقد أنّ هذا سيساعده في العثور على القنبلة وجلبها خفية إلى هنا!

انفجر الوزراء ضحكًا، وكظم الرئيس ضحكاته بصعوبة بالغة، محافظًا على مظهره الوقور. وقف بارني كارتالا، ووجهه عابس مكفهرّ وخرج حانقًا.

تكلّم رئيس الوزراء، وقد برد قلبه:

– ما رأيكم يا سديد الرأي، أن نبعث سفيرنا غير المقيم في العالم البروفيسور الشيخ عبده إلى باكستان لإتمام صفقة شراء القنبلة النووية.

قال الرئيس، وهو يهزّ رأسه:

– الاقتراح مقبول، كم تقدّر سعر القنبلة؟

ردّ رئيس الوزراء، وهو يسوّي الشعيرات الناتئة في قذاله:

– مبدئيًّا، نعطيه عشرة ملايين دولار أميركي، وبعد أن نشتريها يقدّم لنا الفاتورة، ويعيد الباقي. طقطق فخامته بإصبعيه، فهبّ كيبرو ووضع على منضدة الاجتماع حقيبة سامسونايت ثقيلة الوزن، فتح فخامته، فإذا هي معبّأة عن آخرها دولارات، وقال:

– هذه الحقيبة فيها خمسة عشر مليون دولار.

التفت فخامته إلى سكرتيره كيبرو، وطلب أن يجعلها عشرة ملايين فقط، لكنّ رئيس الوزراء سارع إلى إغلاقها ووضع يديه عليها:

– هل سمعت يا سيدي الرئيس قول الرئيس الفرنسي ديغول؟ لقد قال الفساد ملح التنمية!

ضحك فخامته ضحكة صاخبة جدًّا، ودفع بالحقيبة إلى رئيس وزرائه، قائلًا:

– هعهعهع... في صحّة التيّار الديغولي!

وضع رئيس الوزراء الحقيبة تحت كرسيّه وضمّها بين بساقيه.

قال له الرئيس، وسبّابته تطلق إشارة تحذير:

– نبّه السفير الشيخ عبده أن يحذر من الغشّاشين، اطلب منه قبل أن يشتريها أن يجرّبها أوّلًا.

سال لعاب الفتى المراهق ملتانو عيدي وزير النفط، حين رأى رئيس الوزراء يستحوذ على ذلك المبلغ الهائل من النقود، فرفع يده مثل تلميذ في المدرسة، فأذن له فخامته بالكلام، فقال:

– في الواقع سيدي الرئيس، عندي فكرة أودّ عرضها عليكم.

شجّعه الرئيس بهزّ رأسه، فتابع قائلًا:

– فكرتي هي شراء مكّوك فضائي يخصّص لنزهاتكم الخاصّة خارج الغلاف الجوي للأرض.

قال الرئيس:

– وأين يباع هذا المكّوك الفضائي؟

حكّ ملتانو مؤخّرته، وأجاب:

– يمكننا تدبير واحد لسيادتكم من طريق المهرّبين المغاربة في طنجة.

مرّر فخامته أصابعه على حنكه من أسفل لأعلى، وقال:

– مع الأسف يا ملتانو، ليس لديّ وقت للتسلية، فأنا كما ترى مشغول بأمور الحكم، ولا أكاد أجد وقتًا حتى للنوم مع زوجتي.

أصرّ ملتانو، قائلًا:

– فكّرتُ في أنّه يمكن معاليكم الاستفادة من المكّوك الفضائي للطوارئ... كأن تستدعي الضرورة الهرب بسرعة من القصر. قاطعه الرئيس بحدّة:

– هل فقدت عقلك يا ملتانو؟! أنا أهرب؟! هل تشكّك في شجاعتي؟! هل تظنّني جبانًا؟! هذه وقاحة ما بعدها وقاحة وتستحقّ عليها الإعدام.

وثب السكرتير الشخصي كيبرو ووضع مسدّسه على رأس ملتانو، فانهار الأخير باكيًا واعتلى المنضدة وزحف على أربع في اتّجاه الرئيس لاثمًا يديه في تذلّل، وهو يقول:

– اغفر لي سيدي الرئيس، سامحني، غلطة لن أكرّرها ما حييت، أقسم بالرب سأقتل نفسي إن فكّرتُ مجرّد تفكير في خاطر كهذا.

صاح فخامته مناديًا حارسه الشخصي:

– برمبراس، خذ هذا السفيه، واحبسه في الحمّام.

نفّذ برمبراس الأمر، ورفع الفتى ملتانو من قفاه ومضى به خارج حجرة الاجتماع.

تعكّر مزاج فخامته، وازدادت نظراته ضراوة، صرخ فجأة:

– قفوا!

وقف الوزراء محدثين جلبة كبيرة بكراسيّهم. قال فخامته متنهّدًا بحرقة:

– أحدكم سرق هاتفي.

تلفّت الوزراء إلى بعضهم بعضًا، كأنّ كلّ واحد يلقي التهمة على الآخر. قال فخامته، وهو ينظر إلى السقف:

– أنا أعرف اللصّ!

كتب فخامته الاسم في قصاصة وطواها طيّات عدّة وأعطى سكرتيره كيبرو إيّاها. حدّق فخامته فيهم واحدًا واحدًا، وقال:

– سأعدّ إلى العشرة، فإذا ظهر الهاتف قبل أن أُنهي العدّ، فإنّ اللصّ سينال عقابًا مخفّفًا، وإلّا، فإنّ كيبرو سيفتح الورقة وينفّذ فيه حكم الإعدام فورًا.

عمَّر كيبرو مسدّسه، وأخذ يحوم حولهم بينما راح سيّده يعدّ تنازليًّا. لم يظهر الهاتف على المنضدة، فتح كيبرو القصاصة واتّجه فورًا نحو الشخص المقصود، مصوّبًا مسدّسه إليه. أراد موسى جمال الدين وزير المال الوثوب على كيبرو للإمساك بالمسدّس، لكنّ الأوان كان قد فات واستقرّت الرصاصة بين عينيه.

فتّش كيبرو الجثة، وعثر على هاتف الرئيس في جيب المعطف الداخلي. علّق فخامته وهو يمسح هاتفه بمنديل ورقي:

– كان ثوريًّا فذًّا، لكنّه للأسف لم ينس أنّه كان نشّالًا.

مضت سنوات والعقيد محمد بطّال يحكم جزيرة أنجوان بقبضة حديدية، ولكن من قال أنّ الحديد لا يصدأ؟! ففي آذار/مارس 2008، اندلعت احتجاجات سلمية في مدن جزيرة أنجوان كلّها، وقد أُعطيَ هذا السخط الشعبي، «عملية الديمقراطية في جزر القمر»، الضوء الأخضر وفق ترتيبٍ من الحكومة المركزية في جزر القمر، ودول الاتّحاد الأفريقي وليبيا وفرنسا.

وفي آخر يوم له على أرض الجزيرة، استيقظ فخامته، وهدير محرّكات يسري في عظامه، لم يكن هذا الهدير مؤلمًا، لكنّ الضجّة الصادرة من عظامه أرعبته.

ارتدى بدلته العسكرية المثقلة بالأوسمة، وتحتها الدرع المضادّة للرصاص، وتقلّد مسدّسه، وعلّق في رقبته منظارًا عسكريًّا، وتفقّد الحرز المربوط على عضده الذي اشتراه من ساحر إثيوبي بمليون دولار لحمايته من الرصاص والقنابل والصواريخ وأيّ شيء يمكن أن يُسبّب له الأذى.

لم يُفطر، واتّجه مغمومًا واجمًا إلى مكتبه. وهناك، اكتفى بالماء

والفيتامينات.

وصل نائبه بارني كارتالا، بدلته مُعفّرة كأنّه خارج من شجار، ورسم على وجهه أكبر ابتسامة مُذ ولدته أمّه، قائلًا:

– البشارة سيدي الرئيس، لقد أنهينا العصيان المدني، وعاد الموظّفون المعتصمون إلى مزاولة أعمالهم.

سأل فخامته، ووجنتاه تختلجان لاإراديًّا، فأخفاهما بكفّيه:

– هل من قتلى؟

ردّ بارني، وهو يهرب بنظره:

– اضطرّ الجيش إلى استخدام الرصاص لفضّ الاعتصام، فلقي ثمانية مصرعهم.

امتعض فخامته وتقلقل في كرسيه، وقال:

– هذا تهوّر... كنت أُفضِّل فضّ الاعتصام من طريق التهديد والتخويف فحسب... أمّا الآن وقد حصل ما حصل، فإنّ التمرّد الشعبي سيستفحل أكثر.

راح نائبه يُثرثر متفاخرًا بقوّة الجيش الأنجواني وقدراته الضاربة على سحق أيّ تمرد في أقلّ خسائر بشرية وفي زمن قياسي. قاطعه الرئيس الذي كان شاردًا، ولم يكن يَنصت لحديثه، قائلًا:

– قل لي يا بارني، أما زالت الحكومة تضيف مادّة السي بي سي التي تسبّب الغباء، إلى القمح؟

تلفّت النائب حواليه لإدراكه مقدار السرّية التي يُحاط بها هذا الموضوع، وأجاب:

– طبعًا طبعًا، الحكومة تضيفها إلى القمح بوصفها مكمّلات غذائية.

أخذ فخامته يضرب سطح مكتبه بقبضته مرّات عدّة، قائلًا:

– عليكم مضاعفة الكمّية ثلاثة أو أربعة أضعاف.

تنحنح الحارس الشخصي لفخامته، وتدخّل معلّقًا:

– اسمح لي سيدي الرئيس، أنا لا أرى أيّ نتيجة تُذكر، بل على العكس، الشعب ازداد ذكاءً وأصبح يُطالب بحقوقه... ها هم الناس

منتشرون في شوارع المدن كلّها، يُطالبون بإصلاحات سياسية واقتصادية.

انبعثت زفرة حارّة من صدر فخامته، وهو يقول:

– ليس هذا فحسب، بل بلغت الوقاحة بهم أن يطالبوا برحيلي في الباخرة التي جئت فيها.

تجرّأ النائب هو الآخر على طرح وجهة نظره، قائلًا:

– أنا أيضًا مستغرب جدًّا، الحقّ أنّ الشركة البنمية المنتجة مادة السي بي سي تكذب علينا، واضح أنّ المسحوق الذي نشتريه منها بأثمان باهظة لا يترك أثرًا بالمرّة على مواطنينا.

ضحك الحارس الشخصي بخفر، وقال:

– هه... إنّهم يزدادون ذكاءً!

أخذ فخامته يقضم شفته السفلى، ويقول:

– لقد تعاملنا مع شركة محتالة، وقد تأكّد لنا من تصرّفات الرعية وردود أفعالهم أنّنا نحن الأغبياء الذين خُدعنا بمسحوق يشبه بودرة الأطفال... لقد شربنا المقلب، ودفعنا لها مبالغ هائلة، ونحن ممتنّون لها... يا للعار!

استغلّ النائب الفرصة السانحة للنيل من عدوّه اللدود، وقال:

– سيدي الرئيس، ربّما حان الوقت لمحاسبة معالي رئيس الوزراء السيد كوكان ظلام المكان فهو من اقترح الفكرة، وهو الذي وقّع العقد مع الشركة البنمية.

أشاح الرئيس وجهه، قائلًا:

– كوكان مخبر دولي، لا أستطيع المساس به.

أتى سكرتيره الشخصي، مهرولًا ونُذر الهلع بادية عليه:

– كارثة يا سيدي، مصيبة، نحن نتعرّض للغزو.

وقف فخامته مترنّحًا، وقال:

– عن أيّ غزو تتحدّث أيّها المخمور؟

قال كيبرو، وهو يتلوّى متفجّعًا:

– عشرات القوارب الحربية تهاجمنا من البحر، وعدد لا يحصى من

الجنود الأجانب نزل إلى شواطئ العاصمة موتسامودو.

أخذ كيبرو يلطم خدّيه!

صاح فيه الرئيس:

– كفّ عن الندب، واطلب وزير الدفاع.

نفّذ كيبرو الأمر، لكنّ وزير الدفاع لم يُجب.

علّق فخامته:

– هذا نذير شؤم.

خلال ساعة، تواردتْ الأنباء إلى مكتب الرئيس: «الجيش الأنجواني استسلم، ووزير الدفاع العقيد كاتومبي زاما وقع في الأسر. أعلنت إذاعة الحكومة المركزية من موروني سيطرة القوات المتحالفة على المقارّ الحكومية في موتسامودو وبسط سيطرتها التامّة على المدينة».

رئيس الوزراء كوكان ظلام المكان – المختفي منذ مساء أمس – أجرى اتّصالًا بوليّ نعمته، وقال له حرفيًّا: «القوات المتحالفة لديها هدف محدّد هو إلقاء القبض على رئيس الجمهورية»، ناصحًا إيّاه بالفرار مع عائلته إلى جزيرة مايوت الواقعة تحت السيادة الفرنسية.

دبّ الذعر فجأة في القصر عندما صدرت الأوامر بتجهيز حقائب الرئيس وعائلته استعدادًا للرحيل!

كُلّف نائب الرئيس تأمين خطّ الانسحاب، وانشغل فخامته مع حارسه الشخصي برمبراس بسحب ملايين الدولارات من الخزائن وتعبئتها في حقائب سامسونايت.

أخذ دويّ القذائف وأزيز الرصاص يقتربان من القصر، وعويل النساء يزداد. وسمع الجميع بوضوح هدير الطائرات في السماء. نزل السكرتير الشخصي كيبرو إلى القبو ممتقع الوجه وأخبر مولاه بأنّ العدو قام بإنزال مظلّي وأنّ عليه المغادرة فورًا.

قُتل نائب الرئيس بارني كارتالا في الاشتباكات، وحاصر الجنود المظلّيون القصر، وطلبوا من العقيد محمد بطّال تسليم نفسه. قام العقيد محمد بطّال بمناورته الأخيرة... جعل حارسه الشخصي عبدالحق

برمبراس يرتدي بزّته العسكرية ذات الأوسمة الرفيعة وأمره أن يحلّ مكانه! أوفد برمبراس مبعوثًا إلى الجنود، طالبًا منهم أن يرسلوا إليه الضابط الأعلى رتبة ليتفاوض معه على تسليم نفسه. تقدّم ضابط سنغالي في رتبة نقيب وسُمح له بالدخول وحده إلى مكتب الرئيس. تفاوض معه برمبراس بوصفه رئيس الجمهورية، وطلب السماح للنساء والأطفال بمغادرة الجزيرة أوّلًا، وبعد ذلك يسلّم نفسه.

وافق الضابط السنغالي من دون تحفّظ، ورأى أنّ في تصرّف الرئيس الكثير من النبل والشعور العالي بالمسؤولية، وإن كان قد استغرب قليلًا مطلبه ألّا يسمح لهم بحمل أيّ حقيبة!

في عجل، أجليَ النساء والأطفال، من دون أمتعة، إلى زورق بخاري سريع أبحر بهم إلى المنفى.

وصل العقيد محمد بطّال الذي تنكّر في زي امرأة إلى جزيرة مايوت الفرنسية وطلب اللجوء السياسي. وهكذا انطوت صفحة أحد أكثر النابليونات الصغار جنونًا في التاريخ.